
الدكتور عماد الدين خليل
آفاق قرآنية
دار العلم للملايين


آفاق قرآنية

الدكتور عماد الدين خليل



دار العلم للملايين

ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت

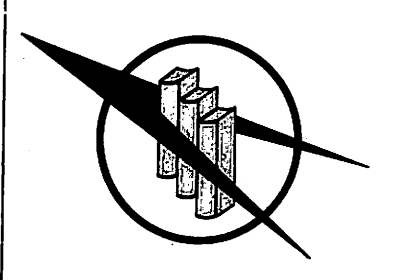
تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٩

الطبعة الثانية

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ثمة في حياة المسلم المعاصر أحداث وتجارب وعلاقات وقيم وآراء ومبادىء واتجاهات ووقائع ونزعات... يتوجّب عليه أن يقف ازاءها بين الحين والحين لكي يسلّط عليها - من زاوية رؤياه الاسلامية - تحليله وفحصه واختباره.. ويصدر حكمه، ويتخذ - من ثم - موقفه.

ما من يوم يمرّ الا ويجد المسلم في حركة الأيام والسنين، وعبر تيّار العلاقات المعقدة المتشابكة، في حياتنا الراهنة، عشرات التجارب والاحداث على مستوى الذات والموضوع، النفس والعالم، الروح والمادة، الانسان والمجتمع، المواطن والسلطة، والسماء والارض..وهي نادراً ما تجيء في اطار قناعاته الخاصة، مصوغة من قيمه، مجبولة عجينتها من همومه ومطامحه ورؤاه.

من هذا التناقض بين ما يؤمن به وما يراه.. من ذلك الاصطراع الدائم بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، من هذا التقابل الذي يمثل جوهر المأساة المعاصرة وسببها القريب

والبعيد.. ينشأ في نفس المسلم وذهنه إحساس نقديّ يصل حدّ السخرية القاطعة حيناً، وتخفت أصداؤه عند حدود الأحزان الصامتة أحياناً.

ولكن الموقف الموضوعي الذي يتطلبه منّا فكرنا هو أن نتجاوز هذا الحدّ أو ذاك، وقد مارسهما الكثيرون للأسف فضيّعتهم السخرية المرّة حينا، واستهلكهم الحزن الصامت العميق حينا آخر.. و «الإدانة» الموجبة في حقيقة الأمر لا تتطلب منا اكثر من أن ننفّذ مقاييسنا ومعاييرنا وقيمنا الغنيّة التي منحنا الاسلام إياها في الحكم على هذه التجارب والاحداث، وتبيان مواقع الخطأ والصواب، وتحديد بقع الأسود والأبيض في مساحاتها جميعاً.

على ضوء هذا الحكم الموضوعي العادل الذي يلتمع في كثير من الأحيان كقبس الشهب في الظلمات، ببساطة بالغة وعفوية عجيبة، يجد المسلم مواقع خطواته ازاء كل تجربة تعرض له في حياته ويتخذ منها موقفه الذي يطمئن اليه ويقتنع به.

والاسلام لم يرد لنا يوماً أن ننعزل عن الحياة ونتخذ ازاءها مواقع السلب والفرار.. الاسلام، بما أنه حركة جهاد دائمة لتغيير العالم، دعانا الى النزول للساحة من أول لحظة.. النزول الى قلب الساحة.. فهنالك من خلال المعاناة الحقيقية المبهظة،

من خلال التقابل الدائم بيننا وبين الذين نسعى الى تغييرهم، رغم صعوبة هذا التقابل الذي يصل بالمسلم أحياناً حدّ الاختناق والسقوط في الخطيئة، ويسوقه احيانا اخرى الى العذاب والاستشهاد!! من خلال هذا التقابل الفعّال، يحدث التغيير الموعود.. وتتبدّل - سريعاً حيناً وعلى مكث احيانا - خرائط المجتمع والعالم وحدودهما وأحجامهما.

لم يكن الجهاد في يوم من الأيام حركة في الفراغ.. ان الحركة في الفراغ لا تعدو أن تكون سلباً وسكوناً في نهاية التحليل.. وما طلب ديننا منا يوماً أن نقبع بعيدين في مواقع السلب والسكون.

وعندما قال الرسول عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان..» كان يطرح في المقابل الأرضية التي يتحقق فيها التغيير، ارضية الصدام والتقابل والتداخل والصراع.. فلا تضرب اليد في الفراغ، ولا تتبدّد الكلمات في الفضاء، ولا يستنكر القلب - وهو لا يرى ويحسّ - ما الذي يحدث فيقبل أو يرفض!!

نحن ننظر اليوم فنرى حملة المذاهب الوضعية، وبخاصة الجدليين منهم، لا تفوتهم تجربة، ولا يفلت من بين ايديهم

حدث، الاّ ووقفوا ازاءه دارسين محلّلين، مسلّطين قيمهم ومعاييرهم - التي تصل حدّ التيبّس احيانا - ومتخذين مواقفهم ذات اليمين وذات الشمال.

فما لنا نحن الذين منحتنا عقيدتنا هذا القدر العظيم من القيم والموازين الحركية المرنة الممتدة الى شتى مساحات الفعل البشري، على مستوى الفكر والحياة، ندع العشرات والمئات من هذه الوقائع تفلت من ايدينا، فلا نقف ازاءها نفحص ونتمعن، ولا نصدر حكما، ولا نتخذ موقفا؟؟

ما لنا نحن نتوقف عن مجابهة الحياة المتمخضة، الدائمة التغير والتبدل، ببداهاتنا وقيمنا ومعاييرنا التي لم تقصِّر يوماً عن منحنا القدر الكافي من الضوء لتبيّن مواقع خطواتنا في قلب العالم، واتخاذ مواقفنا تجاه قضاياه وهمومه ومتغيراته؟

في الصفحات التالية يجد القارىء بين يديه محاولة اولية متواضعة لرصد عشرات من التجارب والقيم والوقائع، مما يعرض في حياتنا اليومية الراهنة، أو في ساحات الفكر والعقيدة، وإعطاء تحليل سريع لها، من خلال الرؤية الإسلامية.. واتخاذ « موقف » إزاءها.

وعسى أن اكون قد وفقت بعض الشيء في هذا السبيل..
ومن الله وحده التوفيق..

الموصل – العراق

عماد الدين خليل

المشروع الدائم

يمكن اعتبار « الانسان المسلم »: « مشروعاً دائماً »، بما أنه حركة متدفقة في الذات والمجتمع، وسعيٌ أبدي لا يتوقف عن التشكل والتغيّر، ولا يكف عن الطموح الى الكمال الذي لم يضع له الاسلام حدوداً نهائية أو تصميماً مسبقاً!!

إن الاسلام يكشف عن البداهات ويضع القواعد الاساسية لتنظيم وتسيير الذات والجماعة وفق اكبر قدر من التناسب والتوازن والتناظر، من أجل أن يتيح لهما الأرضية التي تمكنهما من العطاء الدائم، متمثلاً « بالجهاد » على مستوى النفس والعالم، وفي كل مساحات العمل البشري اياً كان.. هذا في الوقت الذي تتجاوز فيه المذاهب الوضعية - بمختلف صيغها - منطق التوازن ذاك، فيستحيل « الوجودي » - على سبيل المثال - مشروع تغيّر دائم على حساب « الآخرين ». ويغدو « المادي » المنشدّ إلى « الوحدة الجماعية »، حركة تشابهية صمّاء على حساب « الذات »..

لكن الاسلام - من جهة اخرى - يدع الطريق

بكلّيته، منطلقاً صوب آفاق وأمداء ما لها من حدود.. وينفخ في الانسان «المجاهد» روح السباق من أجل تجاوز اكبر قدر من المسافات وادراك و«تنفيذ» اسمى الغايات... وكلنا يعرف ذلك «السلّم» الصاعد الذي طُلب من المسلم أن يتشبث بدرجاته السفلى - على الأقل - لكي يحقق قدراً كافياً من (الحياة الكريمة) التي جاء الدين الجديد لكي يمنحها، لا للمتواكلين القاعدين الكسالى، ولكن للمتوكلين العاملين الذين شحذوا إرادتهم منذ البدء لكي يستحقوا الهبة الكبيرة... كلّنا يعرف هذا السلّم الذي يبدأ بالإسلام والإيمان، ثم يصعد صوب التقوى، إلى قمم «الاحسان» التي لا حدود لشموخها وامتدادها في أعماق السماء!!

والمسلم، هذا «المشروع الدائم»، يبدأ جهاده على مستوى الذات والعالم بأن ينتمي لعقيدة الاسلام ويؤمن بها ثم يتجاوز هذا الى مرحلة التقوى التي «تلزمه» بمتطلبات دينه وحدوده أمراً ونهياً.. وله بعد ذلك أن يتحقق «بالاحسان»، الدرجة القصوى في مشروع الانسان المسلم، وهو يكافح في عملية صعوده الشاقة والممتعة في الوقت نفسه..

إن الإحسان يعني أن يقف الانسان المسلم قبالة الله بحسّه وشعوره وضميره، وعقله وقلبه ووجدانه، فيحسن كل شيء،

صغيراً كان أم كبيراً، ويبدع في تنفيذ كل مهمة، جزئية كانت أم كلية، ويستنفر اقصى طاقات أمانته ومسؤوليته ويقظة ضميره، من أجل أن تجيء جل ممارساته نقية، أصيلة، متسامية.. لأنه يحسّ من الأعماق، وقد بلغ هذه المرحلة الصاعدة، أنه يرى الله بعقله وقلبه واحساسه وفؤاده، وان الله جل جلاله، يراه، بالمقابلة!!

ولنا أن نتصور الآفاق التي يمكن ان تقودنا اليها درجات الاحسان... إن العالم كله في الخارج، والنفس العميقة، في الداخل، هما ميدان العمل والجهاد في مرحلة الاحسان هذه..

إن الجهاد بمفهومه الباطني والخارجي، على مستويْي النفس والعالم، لا يصل حدّ التألق والديمومة والإبداع الاّ في هذه المرحلة المتقدمة، حيث يغدو المسلم، وقد استكمل بداهات الاسلام، وقواعد الإيمان ، وشروط التقوى، مشروعاً حركياً متدفقاً، وهو يسعى - يوماً بعد يوم - للتقرب الى الله اكثر، لابتغاء مرضاته التي تلقي في النفس اكبر قدر من الطمأنينة والثقة، وتدفعها لاجتياز أوسع الدرجات في الطريق الى المثل الأعلى..

فبما دام الله - جلّت قدرته - يقف قبالة وعينا الكامل، فلن تصدّنا عن المضي إليه عقبات العالم كله وأسلاكه الشائكة التي ما نُصبت في الطريق الاّ لكي تستفز في الانسان «المحسن» طاقة التحدّي والتغلب والانطلاق!!

العزف على الحسناء!!

في أسفل « مانشيت » لأحد الأفلام الحديثة قرأت هذا العنوان « العزف على الحسناء »، فرفعت رأسي الى اعلى فاذا بصورة امرأة شبه عارية يحتضنها رجل بيد، ويحرّك على ظهرها باليد الأخرى، وتر الكمان، فكأنه يعزف عليها!! ولولا انني كنت قد قاطعت السينما منذ تحولتْ الى جنس رخيص، لخطوت الخطوة التالية ودخلت الصالة لمشاهدة هذا الفيلم المثير.. « العزف على الحسناء »، ترى.. ماذا كنت سأجد؟ وماذا ستكون عليه أفلام الثمانينات والتسعينات ولا أقول أفلام ما بعد سنة ٢٠٠٠؟

إن خيال الإنسان لا يقدر، مهما امتلك من قوة ومقدرة على التصوّر، أن يكثّف في وعيه ما سيحدث يومذاك على الشاشة الفضيّة، اذا كنا اليوم نشهد عزفاً هذه طريقته وهذا اسلوبه.. اوتاراً تتحرك على اللحم البشري العاري، بدلاً من آلة الكمان نفسها، لكي تسمعنا لحناً لا ريب وأنه يقطر شهوانية وشبقاً، ولا ريب - ايضاً - أنه ينضح بالغرابة

والعبث واللامعقول..

إننا نعيش فعلاً عصر الغرابة والعبث واللامعقول..

فبينما يسيطر الإنسان المعاصر على الطبيعة هذه السيطرة الفذّة، المعجزة.. وبينما يتمكن من عالمه المادي هذا التمكن العظيم.. نجده في عالم الروح.. في ميدان القيم والعلاقات.. في ساحـات الفكر والفن.. في أمـداء الرؤى والتصورات والاحلام.. في طرائق المعيشة والتصرف والسلوك..يفقد اكثر فأكثر السيطرة على نفسه، ويضيع...

من هذا التناقض الذي حدثنا عنه «ألكسيس كاريل» في كتابه القيم «الإنسان ذلك المجهول»، فأطال الحديث... من هذه العلاقة العكسية بين تمكن الإنسان من العالم وفقدانه نفسه... من هذا التضادّ بين القدرة على تسخير الطبيعة وبين عدم القدرة على تحقيق الحياة السعيدة، العادلة، الجميلة... ينشأ أعمق حزن عرفه تاريخ الإنسان..

ولكنه حزن لا يريد أصحابه أن يعترفوا به، وهم من أجل أن يغطوا عليه يضطرون الى الصراخ.. الى اتخاذ مواقف غاية في الغرابة والشذوذ واللامعقولية.. إلى ان يمثلوا على أنفسهم وعلى الآخرين.. أن يلبسوا الاقنعة ويختاروا بأنفسهم أن يتحولوا الى مهرجين وبهلوانات، تتجمع الى

بعضها شيئاً فشيئاً، ويزداد عددها يوماً بعد يوم.. وتسير جماعات جماعات في الشوارع والحارات، وتجتاز المدن الصغيرة والكبيرة وهي تضحك وتغني وترقص وتقفز وتصرخ وتتعرى..

إنه عصر «الهيبيز».. عصر التناقض والحزن.. العصر الذي سيتحول الناس فيه جميعاً الى مهرجين وبهلوانات.. الا مَنْ رَحم اللهُ..

اذا أردتم أن تعرفوا مقدار الحزن الذي يترع عصرنا فقوموا بجولة الى واجهات دور السينما، وتأملوا اعلاناتها.. ولا أقول ادخلوها!!

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه

إلى عهد قريب كان المبدأ السائد في علم الطبيعة ان المادة لا تفنى ولا تستحدث، فاذا بنا نسمع بعد ذلك بمبدأ آخر، نقيض تماماً لسالفه، يقول ان المادة تفنى وتستحدث. وكان الناس الى عهد قريب، يعتقدون ان المادة، وقد كشفوا عن تحليلها الجزيئي النهائي، هي الاساس الأخير في بنية الطبيعة والكون، فإذا بهم يكتشفون ان الطاقة والحركة في بنية الذرات ومداراتها الالكترونية، لا المادة، هي هذا الاساس..

وكان العلماء إلى عهد ليس ببعيد، يرون في جاذبية نيوتن تفسيراً لكثير من غوامض الكون ونظم مجموعتنا الشمسية، فإذا بأينشتاين يهدم بـ« نسبيته » كثيراً من أعرافهم ومسلّماتهم..

وربما سيجيء اليوم الذي يثبت فيه أن هذه « النسبية » لا تعدو مساحة ما في هذا الكون الشاسع اللانهائي، وأن

المساحات الأخرى، التي يغلب على تحليل نظمها وعلاقاتها، الظن والتخمين، تندّ عن منطق الجاذبية، ومعطيات النسبية، إلى تسميات وعلاقات أخرى لم يَدْر أحد كنهها بعد!!

واذن، فان العلم، رغم احتمالاته اليقينية، بسبب تجريبيته، وامكان الحصر المختبري لوقائعه، اسباباً وعلاقات ونتائج، ليس بالمسألة النهائية المطلقة، لأن بعض ما قيل بالأمس رفض اليوم، وما يقال اليوم سيعدّل في الغد..

اي خضم هائل الذي يتحرك فيه الانسان، بقدراته الخلاقة للكشف عن بعض اسراره وطلاسمه؟ انه ولا ريب بحر لا تدرك شطآنه وجزره التي يتوقف فيها عباقرة بني آدم، حيناً بعد حين، وهم يضربون في اليمّ، ريثما يلتقطون انفاسهم، ليست بالجزر الأولى والأخيرة، ووقفاتهم فيها ليست سكونا، وانما تأهب لانطلاق جديد الى آفاق ابعد.. والقول بان التربة الكونية كلسية بيضاء، او معدنية ملونة،اعتماداً على فحص تربة جزيرة او جزيرتين او مائة جزيرة او الفاً ليس امراً يقينياً، كما انه ليس اسلوبا علميا!!

وحسب بني آدم من سعيهم المبدع هذا، الكشف عن بعض نواميس الكون وطاقاته المذخورة واسراره المغيّبة واعتمادها في تطوير المنجزات الحضارية، والاسراع بها، وتسهيل سبل

الحياة الطيبة على الأرض.

وذلك هو أحد الأهداف الكبيرة التي دعانا القرآن إليها عبر حشد كبير من آياته البينات، قال لنا فيها إن خلافتنا على الأرض ليست سكوناً فيها ولا خلوداً إليها وإنما هي حركة وسعي وجهد وإبداع وكشف ومراقبة واختبار لادراك سنن الطبيعة ونواميسها واعتمادها لتحقيق الهدف الذي استخلفنا الله من أجله على الأرض واستعمرنا فيها..

والحق أن هذه الدعوة كانت بمثابة منهج جديد في البحث يقوم على «التجريب» و«الاختبار»، وينبع والإيمان من مورد واحد لكي ما يلبثا أن يصبّا في المصير الواحد... وهذا هو الذي مكن المسلمين من تحقيق نتائج جاسمة في ميدان البحوث العلمية والتجريبية، كان لها تأثير إيجابي فعّال في بناء الحضارة المعاصرة، اعترف به الأعداء قبل الأصدقاء.

والى جانب هذا «المنهج العلمي» لصياغة الحضارة الاسلامية على اسس مرتبطة بالعالم ومتطورة به، قدم القرآن في عدد من آياته بعض النماذج «العلمية» كمعطيات «جاهزة» تكشف عن بعض حقائق الكون واسراره ونواميسه.. واغلب الظن ان القرآن الكريم لم يرد بهذه الآيات

ان يجعلها وسيلة اعتماد علمي في ميدان التطور الحضاري، لأن هذا لم يكن اوانه قد حان بعد ولم يكن المسلمون قد قطعوا سوى الخطوات الاولى في هذا الدرب، كما انه لم يرد ان يعجز بها تلك الاجيال الأولى في امور لم يكونوا يدركون ابعادها الحقيقية..وإنما إعجاز أجيال تالية من أناس سيشهدون بأم أعينهم، ومن خلال جهود علمائهم الدائبة، مصداق هذه الحقائق والمعطيات، وذلك تنفيذاً لما ورد في القرآن الكريم نفسه ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾ ويؤكد هذا قوله تعالى مخاطباً المشركين ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله...﴾.

ومن ثم فإن قول البعض بأن القرآن ليس كتاب« علم »ولا يحوي - بالتالي - اية طروحات علمية، قول مردود بشهادة القرآن نفسه، وقول البعض الآخر بان ربط المعطيات القرآنية بنظريات العلم وكشوفه سيقود الى نوع من التصادم بين الطرفين، قول مردود ايضاً. فالقرآن لم يطرح الاّ مبادىء علمية شاملة ونأى عن الجزئيات والتفاصيل، بحيث ان اي تطور علمي او كشف جديد لا يمكن ان يكون الاّ في إطار من هذه المبادىء والمعطيات الشاملة من مثل « وخلق كل شيء من ماء» ومثل « رفع السماء بغير عمد ترونها » ومثل « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون...».

ويوم نحسّ تناقضاً واضحاً بين معطيات العلم وطروحات القرآن، وهذا بعيد الاحتمال، فإنه لن يكون إلاّ نتيجة طبيعية لنسبية الحقيقة العلمية، كما بيّنا، وعدم استقرارها، وتغيرها الدائم من جهة، وإلى يقينية القرآن الكريم ومعطياته التي منحنا اياها الله الذي وسع كل شيء علماً!!

الكلمة: فعلٌ يلتزم ويثور..

يقول سارتر: «اذا لم يكن الأديب حليفاً للمظلومين فلن يكون الاّ شريكاً للظالمين»..

وقفت طويلاً أتأمل «موقف» الأدباء الاسلاميين على ضوء هذه العبارة.. من احرى منهم بالتزامها؟! من أجدر منهم بمعرفة حقيقة انهم، ان لم يكونوا مع المظلومين، كانوا مع الظالمين؟

إنه لا يوجد موقف وسط بين الحق والباطل، ساكن غير متحرك.. إن الإنسان والأديب، بالأحرى الكلمة، فعل، كما يقول (سارتر) نفسه، لا يعدو أن يكون مع الظالم أو المظلوم، تبريراً للظالم أو انصافاً للمظلوم.. إن الكلمة (تغيير) هي في فاعليتها تذكرنا بحديث الرسول (ﷺ) «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»!!

فالكلمة هي الحد الوسط بين اليد وبين الرفض الباطني الصامت.. وهذه الافعال الثلاثة - على كل حال - تمتلك

فعلاً قديراً على التغيير.. ان الرفض الصامت هو الآخر (عمل) من اجل التغيير، تهيئة وتمهيد للكلمة الغاضبة واليد الضاربة.. ومن ثم فان موقف الاديب هو تحميل« الكلمة »كل ما تستطيع حمله في عملية التغيير.. وهو تغيير دايناميكي ابدي ما دام هنالك ظالم ومظلوم.. وان رسولنا (ﷺ) قد طرح هذا البعد الدايناميكي لكي يغطي كل زمان ومكان، دونما توقف...

والمعروف والمنكر يصطرعـان، ويتبـادلان المواقـف كاصطراع الليل والنهار وتبادل الشمس والقمر.. والجهاد، ماض، بتعبير الرسول، الى يوم القيامة..

وهنا نلتقي مع كل حركة (التزام) تسعى الى تحميل الكلمة مسؤوليتها في تاريخ الانسان وحركته صوب الحق والعدل.. ولكننا نفترق مع هذه الحركات (كالماركسية والوجودية...) في تحديد طبيعة الظلم ومساحته.. فالشيوعية ترى مساحته مقصورة على حاجة الانسان الى الطعام .. على طاغية يتخم وفقير يموت جوعاً.. والوجودية تراها كذلك، بدافع من مركب نقصها ازاء الماركسية ومن الانتماء اليهودي الواحد لمؤسسي الحركتين، وتضيف اليها مسألة « الحرية » المتبادلة بالالتزام.. والكلمة تجيء - اذن - لتعزيز حرية الانسان وهو يناضل

من أجل ان يسمح له ان يكون « موضوعاً » ديناميكياً، لا « ذاتاً » ساكنة (ستاتيكية).. دون ان يدري هؤلاء ان اطلاقاً كهذا يقود الى ارتطام الحريات والمشاريع والذوات المتحركة اعتماداً على فردية الانسان وتوحده وعدم تشابهه اساساً مع الآخرين.

اما الاسلام فيرى ان الظلم الواقع بالانسان يشمل دائرة اوسع بكثير من دائرة الحاجات الاساسية المكبوتة، او الحرية التي تحيل الإنسان الى « مشروع » دائم التغيّر والتمخض، دون ان يرتكز على قيم ثابتة، ومحور واحد، مما يؤدي حتماً الى التشتت والتميع والضياع، الذي نجده واضحاً في التطبيق العملي للوجودية، وفي الترجمة اليومية للنظريات التي يقول بها الوجوديون...

الاسلام يرى ان « الظلم » هو في اخراج الانسان عن موقعه « الطبيعي »و« الأساسي »في خارطة الكون، في تدمير « إنسجامه » مع نواميس العالم والخليقة، في تحويله عن « حريته » و « توازنه » و « توحده » الى العبودية والتأرجح والتمزق.. وهذا انما يجيء - دوماً - على يد « الفئة » او « الطبقة » او « الجماعة » او « الفرد » الذي يسعى الى الحاق هذه المآسي بالانسان من اجل ان يتأله هو في الارض ويحقق

مطامحه على حساب بني آدم.. وهو، او الطبقة او الفئة... لن يهمه، او يهمها، النتائج المتأتية من جراء هذا «الظلم» النازل باخراج الناس عن مواقعهم الطبيعية، وانسجامهم، وتدمير توازنهم وتوحّدهم وحريتهم، ما دامت النتيجة في صالح الفئة او الفرد التي انتزعت لنفسها حق القيادة والالوهية، وسحبت صفة العبودية على جميع الناس لكي يتحولوا الى قطيع لا تزيد فاعليته في الارض على تقديم عطائه وجهوده ثماراً سائغة للقلة المترفة المستعبدة..

ومن ثم فان دور الاديب المسلم هو الحركة الملتزمة جانب المظلومين جميعاً من أجل عودتهم الى مواقعهم الطبيعية وانسجامهم، ومن اجل استرداد حريتهم وتوحّدهم وتوازنهم، والجهاد الدائم الذي لا يرحم ضد كل الطواغيت الذين يسعون في الارض فساداً ويؤلهون انفسهم من دون الله، ويستعبدون الناس ظلماً وزوراً.. هذا الموقف الملتزم الذي يعمل على اوسع مساحة عرفها الصراع بين الظالمين والمظلومين، مروراً بمسألة الطعام والشراب والقسر الاجتماعي والحرية، وانتهاء بالافق الواسع الذي يختفي فيه الظالمون جميعاً ويتحرر المظلومون من قيود القسر والعبودية.

ومن هنا نجد تنبيه القرآن الكريم دوماً الى اهمية الأخذ على يد هذه الفئة الظالمة والاّ عمّت البلوى كل الناس ظالمين

كانوا او مظلومين ﴿واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾، ومن هنا - كذلك - اكد القرآن على ان الشعر الحقيقي هو الشعر الملتزم قضية الايمان والانتصار على الظلم ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون. الم تر انهم في كل وادٍ يهيمون. وانهم يقولون ما لا يفعلون؟ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا...﴾.

وهذا اصدق تعبير عن مسألة التزام الكلمة، لكونها لا تحمل ايجابيتها الاّ بان تكون فعلاً يلتزم.. ويثور.. يؤمن.. ويتحرك.. ويظل دائماً على خط المظلومين حتى يتحقق لهم الانتصار على الظالمين!!

نحن نعيش ازمتين

كثيراً ما يسأل الانسان نفسه : لماذا نصاب نحن المسلمين بنفس الامراض النفسية والعصبية والعضوية التي يصاب بها الغربيون، وبخاصة في العقود الأخيرة من القرن العشرين؟ قلق،انهيار عصبي، ضغط دم ، قرحة،اكتئاب.. الى آخره.. واين هي السكينة التي يلقيها الايمان في القلوب والسلام الذي يغمر به النفوس؟

ويجيء الجواب : اذا كانوا هم يعيشون أزمة مسطحة واحدة، فاننا نعيش ازمتين .. هم يعيشون أزمة ضياع الروح في عالم مادي يحاصرهم من كل مكان.. ونحن نعيش أزمتي ضياع الروح والأرض في عالم لا يتيح لنا أن نقول كل ما عندنا.. أن نمارس تجربتنا العظيمة، المتوحدة، المنقذة، وأن نريها للبشرية قائمة مجسّدة، ونعلمهم أن الطريق الوحيد هو هذا...

لو أن الدمار الذي يعانيه الانسان الغربي المعاصر،على شتى مستويات الذات والمجتمع، يقابله تماسك واندفاع في

انسان الشرق لكان من المحتمل أن تنهض الحضارة الشرقية من جديد..

ليس انتقال الحضارات بالأحلام والامانيّ.. انها لا تنتقل من قارة الى قارة، ومن مكان الى مكان، الاّ بأن تتهيّأ لها مسبقاً، أرضية صالحة من الانسان الفعال نفسه ومن الجماعة المتماسكة المبدعة، لأن الله سبحانه « لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم»..

ولكن، وا أسفاه..

إن ما نجده من دمار أخلاقي وروحي في الغرب يقابله دمار وتحطم اشد وأنكى في الشرق.. إن الانسان هناك يحمل مرضاً واحداً أو مرضين ويعاني من أزمة واحدة أو أزمتين.. ولكنه هنا يحمل عشرين مرضا ويعاني من ثلاثين أزمة.. واذا كان هناك يجد - أحياناً - بعض المنافذ والابواب لتجاوز امراضه وأزماته فانه هنا محاصر من كل مكان.. لا نوافذ ولا أبواب! !

كيف نأمل في انبثاق الحضارة الشرقية من جديد فيما يسمونه اليوم بالعالم الثالث، أو الكتلة الأفروسية؟

إنّ تحرير ارضنا من قبضة الاستعمار لا يكفي.. ولا بدّ من تحرير نفوسنا ومجتمعاتنا مما تركه فيها الاستعمار عامداً أو

غير عامد.. إن النقلة الحضارية ليست أمنية تتمنى، ولكنها عمل خلّاق وجهد مبدع وتغيير دائب.. ومرة اخرى.. «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم».

من مسيلمة الكذاب الى الدكتور

اريد ان احطّم هذا الدين! !

عبارة «مألوفة» قالها يوماً مدرّس لغة عربية في لحظة من لحظات غضبه وثورته.. ولم يستطع الرجل - بطبيعة الحال - ان ينفذ وعده.. وقد ركب موجة الارهاب الحمراء عام ١٩٥٩ علّه يصل الى اهدافه..

وتفتّتت الموجة الحمراء..وها هو الان يدلف الى الشيخوخة، مريضاً، معقداً، مُنْهَكاً.. لا يدري في أية لحظة ينزل عليه الموت، الذي لا يعرف احداً، لكي يختطف روحه.. اما الدين الذي أراد ان يحطمه فلا يزال بخير كما هو.. وسيظل رغم انف المدّرّس حياً او ميتاً..

ترى.. كم رجل اطلق هذه الصرخة، في لحظات الغضب والثورة، كما اطلقها مدرسنا ذاك؟ يقينا انهم مئات، بل الوف.. وربما ملايين،اذا بدأنا الحساب من عهود مسيلمة الكذاب والاسود العنسي وطليحة بن خويلد وسجاح

التميمية وعبد الله بن سبأ.. لكن أين هم؟ وماذا حلّ بغضبهم؟

لقد ماتوا جميعا وأكلهم الدود.. بعضهم مات ميتة طبيعية، وآخرون مُرّغت انوفهم تحت اقدام المجاهدين عن هذا الدين.. وفئة ثالثة، وهي اكثرها كمّا، ازدادت وعياً ونضجاً وهي تغادر مواقع المراهقة والانفعال والشباب، وتدلف الى الرجولة..فتبرأت من موقفها ذاك، وعادت لكي تنتمي باخلاص اشد واعمق لهذا الدين.

وبأساليب مختلفة، اشد خفاء والتواء ومكراً، يطلع علينا مرتدّو ما بعد النكسة لكي يطلقوا الصرخة نفسها، مدفوعين هذه المرة باغراءات الذهب والفضة من الوراء، وبالخوف من عودة الالتزام الديني في اعقاب الهزيمة النكراء، من الامام.. وهم بين شدهم وجذبهم ذاك يقذفون من أقلامهم، التي بيعت بثمن بخس، ثورة عاتية وغضباً جامحا، ليس ضد «اليهودي» أو «الامريكي» الذي هزمنا،ولكن ضد «المسلم» الذي يلوح في الافق ليقودنا الى مشارف النصر.

في البحث، في المقال، في النقد، في الشعر، في القصة القصيرة، في الرواية،في المسرحية، وفي كل جهد مكتوب، تكمن الصرخة الغاضبة نفسها «أريد ان احطم هذا الدين»..

ويبدو أنه من العبث غير الجدي التصدي لمطلقي هذه الصرخة ومناقشة ما يكتبونه لانهم يزدادون كثرة يوما بعد يوم، وتزداد معطياتهم غضباً وهياجاً سنة بعد سنة.. ويغدو من الصعوبة بمكانٍ ملاحقتهم، وإحصاؤهم، وتصفية الحساب معهم.. والأهم من هذا كله انهم لا يصدرون في مواقفهم هذه عن اختيار حر أصيل وتميّز فكري مخلص.. انما هم ادوات.. مجرد ادوات.. تسيّرها الايدي والعقول التي بدأت تلمس خطر «هذا الدين» وتحركه في ساعة المحنة التي نمر بها جميعاً لمواجهة القضية بما يضمن وجودنا ومصيرنا من الدمار والبوار اللذين يريد هؤلاء ان يسوقونا اليهما بواسطة هذا الحشد من المخلوقات التي لا إرادة لها.. والتي تحركها خيوط خفية لا تظهر للعين المجردة في معظم الاحيان.

كلنا يذكر القصة القصيرة التي نشرتها احدى صحف لبنان التقدمية، ويذكر عدداً من القصائد التي اراد فيها قائلوها ان «يبيعوا الله في المزاد» جلّ وتعالى عما يقولون علوّا كبيراً.. ويذكر كتاب (الدكتور....) الذي نقد فيه فكرنا الديني.. ومئات غير هذه وتلك من القصص والقصائد والمسرحيات والابحاث، نعرف بعضها ولا نعرف اكثرها.. لكنها تدور حول المحور الواحد الذي ظل يدور منذ عهد «الكذاب» وحتى عهد «الدكتور» .. مروراً بالمدرس

المسكين.. «اريد ان احطم هذا الدين».

وكلهم ذهبوا، أو سيذهبون، بالميتة الطبيعية الخاطفة أو بتمريغ الانوف.. أكلهم أو سيأكلهم الدود.. والذي يبقى هو «هذا الدين»، شامخا، خالداً صلباً، بمواجهة كل «التيوس» الذين تحركهم الصهيونية أو يدفعهم الاستعمار لمناطحة هذه الصخرة الشامخة، الخالدة الصلبة.. علها تتفتت يوماً.. ولكن النتيجة تجيء دائما مصداقاً لقول شاعرنا القديم :

كناطحٍ صخرة يوماً ليوهنها

فلم يَضُرْها وأَوْهَى قرنه الوَعَلُ

التوازن المعجز

إن من أروع الجوانب في بنيان الإسلام وحبكته الإلهية المعجزة هو هذا التوازن الفذ بين الفردية والجماعية، هذا التناغم الذي يشدّ المؤمنين في وحدة حَيوية تصل حدّ الروعة والجلال، هذا التناسب بين التوغل بعيداً في أعماق النفس البشرية للإجابة على أسئلتها، وتنفيذ أشواقها، ومنحها حقها العادل الأصيل.. وبين الامتداد الكامل إلى كل مساحات الجماعة لتلبية نداءاتها واعطائها دائما الدم والحياة..

إن هذه الهندسة البارعة التي يتناظر فيها ما هو عمودي وما هو أفقي، باتقان محكم، وتتوازن خلالها نزعة «الذات» بكل فرديتها واستقلالها وتميزها، مع نزعات «المجموع» بكل تشابكه وتداخله وتوحّده، هو أحد الملامح الأساسية التي تميز الإسلام عن سائر المذاهب والأفكار.

ليس هذا فحسب، بل إن الاسلام ينشىء بين النقيضين (اذا صح التعبير) «موحّدا» أصيلا، مبدعا، يصل حداً من

الانسجام والتكيّف تضيع فيه الملامح السالبة، الحاجزة، بين « أنا » و « نحن » وتشتبك العلائق بين الفرد والجماعة، بما يخلق وحدة « حضارية » متكاملة، متجانسة، منسجمة، يتيح لها، وقد تجاوزت سلبيات التصادم والاصطراع والتنافر، أقصى درجات العطاء، وأشد حالات « التوافق » مع نواميس الكون والحياة والإنسان.

وما إن يتجاوز الناس التلقي عن الله، وينساقون باتجاه آلهتهم وزعاماتهم لكي يأخذوا عنها المذاهب والخطط والعقائد التي لا تصدر إلا عن التخمين، ولا تصاغ إلاّ بالظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، حتى يجدوا أنفسهم مقهورين على الانجراف مع هذا التيار أو ذاك.. مع الفردية - الذاتية التي تتضخم - بالضرورة - تضخماً مرضياً تنعكس معطياته السالبة على « الجماعة » التي أهملت مطاليبها، وعلى الذات نفسها وقد عوملت وفق مناظير تتجاوز رؤية حجمها الحقيقي.. أو مع الجماعة الخارجية التي تتضخم - بالضرورة هي الأخرى - تضخماً مرضياً تنعكس معطياته السالبة على الفرد الذي أهملت ذاتيته، وعلى الجماعة نفسها وقد عوملت وفق منطق رياضي آلي، صارم لا يرى فيها إلا قطيعاً متشابهاً من الوحدات..

ولن يستطيع أحد - مهما أوتي من فكر نافذ وعزم

أصيل - أن يجمع بين النقيضين، وقد اتجه أحدهما صوب أقصى اليمين وانطلق الآخر تجاه أقصى اليسار. ولن يكون هناك أملٌ في تحقق « الموحّد » الذي يجمع بينهما، ما دام الظن والهوى والتخمين تكمن وراء كل جهد بشري في هذا السبيل.

إننا، ونحن الآن في قلب القرن العشرين، قرن التنوّر والتحضر والتخطيط والإبداع، ننظر فلا نرى إلا « فردية » زادتها المذاهب والنزعات الوجودية نأيا عن « الجماعة » وانغلاقا على « الذات ».. و « جماعية » زادتها المذاهب والنزعات المادية بعداً عن « الفرد »، وتشابهية صمّاء تذكرنا بخلايا النحل والنمل، وهي تكدّ وتكدح تنظيماً وإنتاجاً.. وبإيقاع القطعان التي تساق برتابة مملّة إلى مراعيها!!

وليس ثمة محاولة جادة، وراء هذا وذاك، للتقريب بين وجهتي النظر وإعادة التوازن والتناظر والاتساق بين القطبين اللذين، بدون تميزهما وتكاملهما في الوقت نفسه، لن يكون هناك « تيّار » يبعث في الحضارة البشرية المقدرة الدائمة، المتجددة، على التناغم.. والتدفّق.. والإبداع!!

الذين يبحرون ضد أنفسهم

إن «اليهود» كما يبـــدو من مواقفهم التاريخيـــة وبروتوكولاتهم، هم القوة الدينيـة السماوية الوحيـدة التي أبحرت - ولا تزال - باتجاه مضاد لطبيعة الأديان..

فبينما يقرر القرآن الكريم أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب، وبينما يسعى المسلمون، وبعض أتباع الديانات الكبرى الأخرى، إلى تعزيز القيم الروحية والخلقية في العالم ضدّ قوى المادة والتفسخ والتفكك والتحلل حتى ولو كانت تلك القيم التي يسندها الإسلام خارجة عن حدود مبادئه ومعطياته، بسبب من اعتقاده في أن انتصار هذه القيم إنما هو انتصار للدين عموما وللإسلام خصوصاً، في المدى البعيد، وتنمية لرصيده وتمهيد للانضمام اليه في يوم من الأيام..

نجد اليهود - على العكس من هذا - يسعون إلى محاربة القيم الروحية، غير اليهودية، للأديان السماوية، وإلحاق الدمار بكافة مؤسساتها بدافع من انغلاقهم القومي..

وهم مستعدون، بأموالهم ونسائهم وعبيدهم المسخّرين،

لجعل العالم كله يرتمي في المادية والانحلال، معتقدين أن ذلك لن يشكل أي خطر على وجودهم الروحي أو الديني الذي يحميه الانغلاق اليهودي المعروف «الغيتو» والأسرار المقفلة لتنظيمه الكهنوتي، والمقدرة «المادية» والسياسية الكبيرة في مجابهة تحديات التذويب والإفناء الحضاري.. بحيث أننا نجدهم يفرضون ذلك حتى على دولة لادينية كالاتحاد السوفيتي ويرغمونه على حماية تفرّدهم واستقلالهم والسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين ليعززوا اغتصابها بخبراتهم وطاقاتهم يهودية الانتماء..

إن اللاأخلاقية اليهودية تبدو أبرز ما تبدو في اعتمادهم أسلوب الغاية تبرر الواسطة في هذا الميدان الخطير الذي يرفض بطبيعته أسلوباً كهذا..

إنهم يبحرون ضد كل وصية من وصاياهم «العشر»: لا تَزْنِ.. لا تسرق وهم يزنون ويدفعون العالم إلى السرقة.. وهكذا بمواجهة كل وصية يهودية يكون وقوف بني إسرائيل.. وتجاه كل القيم الخلقية والدينية تعمل معاول الهدم التي تعرف كيف تقتلع الجذور من الأعماق وتترك قلب بني آدم خراباً وروحه يباباً!!

إن أشدّ الأسلحة المضادة لقيم الأخلاق والأديان هي اليوم

بأيديهم، نساء ومالاً وعبيداً وإعلاماً وأجهزة ترفيه.. وهم يعتقدون اذ يسخّرونها وفق أشد الأساليب دناءة وانحطاطاً أنهم يمهّدون الطريق لتفرّد دينهم وانتصار قيمهم..

ترى هل سيحقق بنو إسرائيل هدفهم بالاحتفاظ بمقوماتهم الدينية والخلقية بعد دمار قيم الروح والأخلاق في العالم، كما يتوقعون ويؤملون؟!

العمل الذي يهزّ أفئدة الناس

إن أيّاً من الأعمال الفنية أو الأدبية الكبيرة في تاريخ الآداب والفنون، لم تنل خلودها إلاّ بما كان يمتلكه مؤلفها من قدرة على الصياغة الفنية والرؤية الشاملة اللتين تحيلان العمل المبدع الى « سيمفونية » بعيدة الأغوار يُنصت اليها القارىء أو السامع أو المشاهد، وهي تخفت حيناً لتعبّر عن « منولوج » الانسان الداخلي وهو يتحدث الى نفسه عن مآسي الحياة وأحزانها.. وتعلو - حينا آخر - لتصمّ الآذان بصراخ يضجّ بالرفض والثورة والتمرّد... سيمفونية يمتزج فيها الفن بالفكر، والشعر بالتاريخ، واللغة بالموسيقى، فتمنح الانسان لحناً هارمونياً متوافقاً ينبض بالحيوية والحركة ويتداعى على ديمومة الوجدان البشري، وينفتح على آفاق العالم وامداء الكون.. فلا يملك القارىء أو السامع أو المشاهد إلاّ ان يشدّ ذاته اليها ليقرأها كوحدة، ولينصت اليها كلحن من الالحان العلوية التي تناغي الانسان في ساعات تيهه وحزنه وغربته، فتمنحه الطريق والفرح والانتماء..

وسواء كان العمل الكبير رواية أم مسرحية أم قصيدة أم لوحة أم عمارة أم عملاً نقديا أم مقطوعة موسيقية، تتحدى البلى والفناء.. فإن ما يمنحها الخلود انما هي الهزة الوجدانية التي تبعثها في افئدة الناس محمولة على جناحي القلب والعقل أو الفن والفكر أو الشكل والمضمون، متخطية حواجز اللون والدم والارض، وحتى العالم، صوب الانسان في الكون الفسيح..

إن اشد الأخطار التي تعرض العمل الادبي أو الفني لكسر لا يُجبر، وتلقي به في ظلال الإهمال والنسيان، هي تلك الثنائية التي تفصل بين معطيات الفكر والوجدان، وتقيم بينهما الحواجز والاسلاك الشائكة، رغم تشابكهما في صميم التجربة البشرية.. وترفع شعار «إما هذا أو ذاك»، ومن ثم يجيء العمل الادبي، أو الفني، يحمل جفاف الفكر وتجريده الميّت، بعيدا عن هزة القلب ونداوة الوجدان، أو يجنح باتجاه الروح، بعيداً عن صرامة العقل وتقنينه وضبطه ومقولاته المتعارفة، فيهيم في الضباب ويفقد كثافته وصلابته.

وهو في اي من هاتين الحالتين مخلوق مبتور اعرج، يمشي على ساق واحدة، ولا يقدر على مواصلة المسير عبر تحديات الزمان.

ان الاعمال الكبيرة هي التي ترفع شعار «هذا وذاك» وترفض الثنائية والتمزق والانفصال ما دام الانسان، في نسيج بنيانه، متماسكاً، متوحداً، متكاملاً...

وما أحرى ادباء الاسلام وفنانيه، بما علّمهم الاسلام اياه من تجاوز ورفض للحواجز المؤقتة الزائلة، أن يطلعوا على العالم بأعمال كبيرة تهز افئدة الناس على مرّ الأزمان.. اليسوا هم حملة القرآن الذي ظل، وسيظل، يمارس هذا الدور واضعاً الانسان وجهاً لوجه امام مسؤوليته الكبرى في الكون؟

الله.. وفرعون.. ورائد الفضاء! !

يقال إن أحد رواد الفضاء قال ساخراً، بعد أن دار دورات في قمره الاصطناعي بعيداً عن جاذبية الأرض: انني لم أجد الله في السماء، فاين ما يزعمونه من وجوده هناك؟.

وقد ذكرني هذا بموقف فرعون من دعوة موسى اياه ان يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا.. ذلك الموقف الساذج، المتناقض، المضحك، الذي حدثنا عنه القرآن يوم قال فرعون ﴿..يا ايها الملأ ما علمت لكم من اله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي اطلع الى آله موسى واني لأظنّه من الكاذبين﴾.. ثم يعلق القرآن على هذا الموقف بقوله ﴿واستكبر هو وجنوده في الارض بغيرا الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون﴾.

ومن عجب ان حجج الكافرين والملحدين تبقى هي هي تكرر نفسها على مدار القرون،يطرحها بدو غلاظ الأكباد، جهلة، لا يعرفون قراءة ولا كتابة في القرن السادس الميلادي أو قبله، ويطرحها متحضرون مثقفون في القرن العشرين أو

السادس والعشرين.. سواء.. نفس الحجج، ونفس الاسلوب احيانا..ويقذف بها - بصلف - ناس عاديون لا يملكون حولاً ولا قوة، كما يلقيها فراعنة وطغاة وزعماء ومترفون يملكون الكثير من اسباب الحول والقوة والجبروت..

رائد الفضاء يعتقد انه سيلتقي بالله وهو يدور بمركبته في فضاء قريب من الارض، قرب قباء من يثرب، بحساب الابعاد الكونية، وانه ربما سيطلُ على الملكوت من نافذته.. فلما لم يتحقق ظنه عاد الى الارض لكي يعلن عن كذب القائلين بوجود الله..

وفرعون يطلب من وزيره ان يبني له صرحا ذا درج من طين محمى، لا يعدو ان يكون « شيئا » إزاء اية ناطحة سحاب في عصرنا الراهن، لكي يصعد عليه لعله يطلع الى إله موسى، وهو يحمل في نفسه - مسبقاً - احتمالاً قوياً بأنه لن يرى شيئا وان موسى من الكاذبين! !

ومثل هذا، كثير من المواقف الفجّة، والحجج السخيفة والتصورات الساذجة، طرحها الجاهليون بوجه الرسول ﷺ وبوجه دعوته اياهم الى دينه « القيم » ليس أقلها سخفاً اتهامه بأنه شاعر أو كاهن أو مجنون، وإنه يتلقى معلوماته - وهو الأمي - عن رجالات الاديان السابقين، وهم ليسوا عرباً

فصحاء، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، أو طلبهم منه ان ينزل عليهم كتاباً من السماء، أو ملائكة ترى وتلمس، أو يملأ الصحراء بالعنب والنخيل، ويفجر الانهار خلالها تفجيرا.

ثم ما لبث العصر الراهن، عصر العلم والتحضر والتجريب، ومناهج البحث الدقيق، ان شهدها تطرح مرة أخرى، في ابحاث المستشرقين الذين كتبوا عن الاسلام وعقيدته ورسوله وتاريخه، فاتهموا محمداً ﷺ بممارسة الشعر حتى قال بعضهم انه اضطر الى مهاجمة الشعر كي يغطي على عمله أو انه لم يكف عن حملته هذه الا بعد ان تيقن من النصر في العصر المدني، ولذا خلت سور هذا العصر من مهاجمة الشعراء.. كما اتهموه بالجنون واعتبروا تلقّيه الوحي من السماء ظاهرة من ظواهر «الصرع» التي يغيب فيها الانسان عن العالم ويفقد كل مقدراته الحسية والذهنية!! وقالوا انه كاهن يسجع كما يسجع الكهنة في أي مكان وزمان.. ويزيدهم مقدرة على نظم سجعه بأسلوب أكثر روعة وجمالا.. وطرحوا عشرات المرات، فكرة أن معطيات القرآن لا تعدو ان تكون نقلاً «سرياً» عن رجالات الأديان السابقين؟!

ويقينا ان لو كان محمد ﷺ حيا، لتقدم اليه هؤلاء

الباحثون بنفس الطلب القديم.. ان ينزل عليهم كتابا من السماء، أو ملائكة ترى وتلمس.. ثم يخلو به «غربيّوهم» فيلتمسون منه ان يزيل المعسكر الشيوعي من الوجود.. وينفرد به «شرقيّوهم» فيتوسلون اليه ان يمحو «امريكا» من خارطة العالم..

أقول «يقيناً».. لأن المسافه بين هؤلاء وبين زعماء مكه وكفارها ليست بأكبر من المسافة بين رائد الفضاء وفرعون مصر!!

نكون مهندسين أو لا نكون...

على المفكر الاسلامي الحديث أن يغدو « مهندساً » يلتزم قواعد التقابل والتناظر والتناسب، ويعمل بموجب التوزيع الرياضي الصارم للأبعاد والمساحات، ويدرك أن « العمل الفكري» لا يستوي على سوقه إلا بأن يلتزم فيه شرطان أساسيـــــان هما « العـــلم» و« الجمال» أو « المحتوى» و« الأسلوب» أو كما يقول قدماؤنا « المعنى » و« المبنى ».

إن الكتابات الإنشائية ذات الطابع الخطابي، والتي تعتمد التهويل والمبالغة لم تعد تخدم الفكر الإسلامي، بل على العكس تقف في صف عمليات الهدم، غير المتعمدة والتي تسعى الى عرض الإسلام، كما كان يتم في القرن الماضي، والنصف الأول من القرن الراهن، وفق أسلوب منبري يستثير العاطفة استثارة موقوتة، ثم ما تلبث آثاره أن تنطفىء في النفس وتتحول إلى جهل وملل ربما يقودان الى ذلك الرفض غير المسؤول لقيم الإسلام نفسه، تلك التي لم يعتمد في توصيلها للمثقفين والمتعلمين أسلوباً جاداً محدّداً.

والمطابع لا زالت تقذف لنا بين الحين والحين، كتباً ومؤلفات من هذا النوع تسمع - وأنت تقرأها - جعجعة ولا ترى طحيناً.. وخلال هذه الأصوات المتضخمة والتهاويل البلاغية تضيع حقائق الإسلام وتختفي قيمه الواضحة المحدّدة وراء ركام من الكلمات والعبارات «الاضافية» التي لا تصل بالقارىء الى أهدافه إلا بعد أن تجتاز به عشرات المنحنيات والدروب المعوجّة... وعندما يصل يكون قد أرهق، وهو غير مستعد لتقبل الحقيقة النهائية التي سيكشف عنها النقاب... آنذاك!!

وإذا كان هذا متاحاً لكتاب الأجيال الماضية.. حيث لم تكن أساليب البحث الفكري ومناهجه قد نضجت واكتملت فإنه يعد خطيئة كبيرة في العقود الأخيرة التي بلغت فيها تلك الأساليب والمناهج حداً واضحاً من النضج والاكتمال، وانتشرت في أنحاء الارض بحيث أصبحت بداهاتها وقواعدها في متناول الجميع.

فإذا ما أضفنا الى هذا ما يتميز به عصرنا الراهن من سمات أبرزها السرعة التي تتطلب التركيز، والتوغل البعيد في ميادين العلوم جميعاً، مما يستلزم طرح أفكار وسبر أغوار، بعيداً عن الترهات البلاغية والمبالغات الانشائية، كان لنا أن نعرف مدى ضرورة أن يتحول كل كاتب منا الى «مهندس»

يعتمد أدوات « اللغة » المناسبة لإيصال أكبر قدرٍ من الأفكار إلى عقول المثقفين ونفوسهم، إذ يجب أن يكون هناك ترابط عضوي وتسلسل منطقي بين الكلمات والجمل والفقرات والفصول، بحيث أن أي تغيير في وضع واحدة منها، تقديماً أو تأخيراً، يقود الى تفكك في البحث واضطراب في صياغته.. رغم أن أبحاثاً كثيرة تطرح، ولشدة تفككها وعدم تماسكها، فإن بإمكاننا أن نجري تغييراً في مواقع كلماتها وجملها وفقراتها وفصولها دون أن يلحق بالبحث أي أذى، تماماً كما يبني إنسان ما بيتاً كثير الحجرات والردهات، وهو لا يعرف من علم الهندسة المعمارية شيئاً، ومن ثم فإن التفكك والفوضى وانعدام التناظر واختلال التناسب سيمكن أي إنسان من أن يجري تغييراً في التصميم المرتجل دون أن يلحق بالبيت أي أذى..

إن الكلمة الزائدة التي لا تخدم معنى في الجملة يجب أن تستبعد، والجملة العابرة التي لا تأخذ مكاناً مناسباً في الفقرة يجب أن تلغى، والفقرة المرتجلة التي لا تؤدي دورها البنائي إزاء رفيقاتها يجب أن تهمل، ومجموع الفقرات التي لا تحمل في طياتها فكرة جديدة أو عنصراً أساسياً في البحث يجب ألا تأخذ أية مساحة على الورق..

ليس هذا فحسب بل إن البحث بمجموعه، إن لم يضف

جديداً الى ميادين الثقافة الإسلامية، يجب ألا يُهْدَر فيه أي جهد بإمكانه أن يصرّف في طرق باب جديد أو التحرك الى أفق لم يصل إليه أحد قبلاً، أو يكشف عن حقيقة نحن في أمسّ الحاجة في السباق الزمني الراهن، للكشف عنها..

والمؤمنون كما يصفهم القرآن - ﴿يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾... وأي خير أكثر من أن نوفّر جهودنا وطاقاتنا الخلاّقة، لكي نسارع بها في ميدان الفكر، بدلاً من أن نجترّ الأبحاث المتشابهة ونبدأ فيها ونعيد.. وبدلاً من أن نعالج الموضوع الواحد أكثر من عشرين مرّة ونحن نتمطّى ونتثاءب ونعاني الملل، تماماً كما يحدث لمصلّي الجمعة وهم يستمعون إلى خطب، أصبحت لتكرارها تبعث على الخدر وتدفع إلى النوم دفعاً؟!

ولنتصفح - على سبيل المثال - أية مجلة إسلامية فإننا سنجد - إلاّ في قلة نادرة منها - أبحاثاً وموضوعات مكرورة، وبخاصة تلك التي تنشر في «المناسبات الإسلامية» كالمولد والهجرة والإسراء ورمضان والحج والأعياد... وهي مواضيع تحمل في طياتها خطيئتين بحق الفكر الإسلامي والقارىء المسلم، أولاهما إنشائيتها الفاضحة وعدم احتوائها على قدر كاف من الأفكار والتصاميم الذهنية، وثانيتهما

تكرارها الآلي وتضييعها لجهود ما كان لها أن تضيع لولا هذا التكرار..

وليس معنى أن يكون المفكر المسلم « مهندساً » دعوته الى التخلّي عن « القيم الجمالية » في معطياته أبداً.. فلقد بيّنا قبل قليل أن « الجمالية » هي إحدى مرتكزات الهندسة نفسها، فالهندسة - كما هو بديهي - ليست « نقيضاً » للجمال بل إن الرياضيات في أساسها - وهي التي أقيم البناء الكوني وفق مقولاتها - تعدّ بذاتها تناسباً جمالياً باهراً!!

ومن ثم يتوجب على المفكر المسلم ألا يغفل وهو يطرح أفكاره وفق أشد المناهج صرامةً في هندستها، عن المتطلبات الجمالية التي يقتضيها المنطق الهندسي نفسه.. وهي متطلبات ترتكز على « لغة » قلّت نظائرها بين اللغات، تتيح للباحث مجالاً انتقائياً واسعاً لتوصيل « أفكاره » بالأسلوب المتماسك، والواضح والجميل.. ابتداءً باختيار « الكلمات » المناسبة وانتهاء « بالنفس » اللغوي الذي يعطي للبحث شخصيته « الفنية » المستقلة مروراً بالتراكيب الجملية والعبارات والفقرات والفصول..

إن بعض مثقفينا قد ابتلوا - للأسف - بالنظرة التجزيئية للمواقف والأفكار والأشياء وعدموا الرؤية

الشمولية التي لا يتم - بدونها - تقييم موضوعي لأية قضية من القضايا المتجددة في ميادين الفكر والحياة.. وهؤلاء لا يستطيعون إلا أن يفصلوا بين الفكر والجمال، ويقولون: إما هذا أو ذاك.. إما عطاءً فكرياً جافاً جفاف القوانين صارماً صرامة التحاليل الفقهية،وعرضاً للحقائق الانسانية والتاريخية بأبسط الأساليب وأقربها إلى ذهن القارىء، مهما كانت على درجة من الفجاجة والبدائية.. وإما كلاماً فنياً إنشائياً يعتمد مقولات البلاغة وتهاويلها وزخرفها ويطيل الطريق على القارىء بهذه التهاويل وتلك الزخارف التي لا تحوي في طياتها قيماً حقيقية ولا أفكاراً.

وهؤلاء هم الذين تصوروا في نقدي للأكاديمية، ودعوتي لالتزام «الجمالية» في كتابة التاريخ، خروجاً على متطلبات البحث الفكري الجاد، ورفضاً للأسلوب العلمي..

بورجوازي قذر

بورجوازي.. بورجوازي قـذر.. ميول بورجوازية.. أخلاق بورجوازية ..فن بورجوازي.. قصيدة بورجوازية.. وهكذا تتلاحق هذه الكلمة ذات الإيحاء الرجعي المثير من أفواه الماركسيين ومقلديهم تتلاحق لكي تسم كل ممارسة تندّ عن إطار الفكر الماركسي، وكل خبرة تتجاوز معطياتهم، وكل تجربة تغاير تجربتهم، وكل رؤية أو موقف في الكون والعالم تنأى عن رؤاهم ومواقفهم..

ويبدو أن هذا السلاح، الذي يعتمد التفسير المادي في تقسيمه المعروف للمراحل التاريخية بدأ يفقد بالتدريج، بعده الفكري، ويتحول على ألسنة المنتمين والمقلدين الى سلاح نفسي يشهرونه ببساطةرخيصة ضد كل من يخرج على قواعد فكرهم الجاهز، بحيث أننا صرنا نجد هذه العبارة تطلق بكثافة غير مبرّرة، تجاه سائر الممارسات والتجارب المعاصرة بشكل يثير القرف والاشمئزاز.. بل انهم يطلقونها، عبر المعسكرات الماركسية نفسها، ضد بعضهم البعض، رغم تغير

الظروف الموضوعية التي يتحتم، وفق المنطوق الماركسي نفسه، أن تتغير معها كافة المعطيات الفوقية.. ومن ثم فلا بورجوازية في عالم تحكمه علاقات انتاج إشتراكية.. ولكنها وقد فقدت بعدها الفكري - كما قلنا - غدت سلاحا نفسيا يشهر بالحق والباطل، وبمجانية مبتذلة، ضد كل منشق أو مارق.. ومتى كانت أسلحة الحرب النفسية تعتمد أُسس المنطق ومقاييس العقل والموضوعية والحكمة؟

كنت أتحدث يوما عن (الكسس كاريل)، عالم التشريح الفرنسي الفذ، الذي أفنى عمره في المختبرات بحثا عن سرّ تركيب الانسان وتكوين عقله المعجز.. والذي قدم لنا في كتابه القيم «الانسان ذلك المجهول» عرضا علميا تجريبيا لمعطيات بحوثه الطويلة، وأوضح في أكثر من موضع، عبر كتابه هذا، كيف ان العلم البشري المذهل، وقد قطع أشواطا شاسعة في ميدان الكشف عن الطبيعة، وقف شبه عاجز امام (الانسان) ذلك المجهول الذي يملك سرّ تكوينه المعقد المتشابك والذي ليس بمقدور العلم مهما أوتي من قدرة ان يتوغل بعيدا باتجاه تفهمه، وانه سيظل سراً مغلقاً الى أن يشاء الله.. وقد ذكرنا موقف (كاريل) هذا باجابة القرآن المعجزة عن سؤال المشركين رسول الله ﷺ عن سرّ الروح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الاّ قليلا﴾.

ومن ثم فان حكماً يصدره عالم ككاريل على الانسان وطبيعة علاقاته المعقدة، المركبة المتشابكة، بالعالم الموضوعي، اجدر بالاحترام والتقبل من حكم يصدره عالم اقتصاد وفيلسوف اجتماع (كماركس)، لم يَقْضِ يوماً في المختبر يبحث ويحلل ويجرب من أجل الكشف، بطريقة علميه مقنعه، عن طبيعة العلاقة بين الانسان - فردا وجماعة - وبين الواقع الموضوعي الذي يتحرك فيه أو قبالته، وان ما يقوله (ماركس) في هذا المجال لا يعدو دائرة الظن والتخمين اما ما يقوله (كاريل) فهو اقرب الى العلم والتجريب...

وهكذا فان معطيات (كاريل) في القرن العشرين، وقد تطورت طرائق البحث كثيرا، أضعفت الى حدّ كبير معطيات ماركس عن طبيعة العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة، تلك التي وصفها كثير من علماء النفس بأنها تميل الى التسطيح والتبسيط اكثر من اللازم، وانها أقل كفاية من تفسير العلاقة المتشابكة هذه.. أضعفتها ليس فقط لأن «كاريل» جاء بعد «ماركس» بأكثر من نصف قرن، حيث تقدَّم العلم خطوات مذهلة... بل لأن «كاريل» عالم و «ماركس» مؤرخ وفيلسوف، وحكم العالم أقرب إلى الصواب من حكم المؤرخ أو الفيلسوف!!

وقبل أن أختتم حديثي عن المسألة، اذا بطالب ماركسي يرفع يده وهو يهتز انفعالا وقبل ان آذن له بالجواب قال بصوت خطـــابي: ان (الكسيس كاريـــل) بورجوازي.. وبورجوازي قذر!!

ألم أقل لكم إن المصطلح جاوز بعده الفكري لكي يعتمد كسلاح نفسي في لحظات الإحراج والهزيمة؟ وإلا ما علاقة البحوث المختبرية بالبورجوازية؟ ألا يعني هذا أن كل العلماء الكبار، غير الماركسيين، في الطبيعة والرياضيات والطب «كآينشتاين» و «نيوتن» و «غوس» و «ريمان» و «واط» و «اديسون».... بورجوازيون؟!

موقف الإيمان والمحبّة

إن المسلم العميق الايمان، الصادق المحبّة لله، المتشبّع حتى أعمق أعماقه بروح القرآن.. يقف دائماً في الموقع الصحيح، المنطقي، الوسط، الذي تقوده اليه فطرته النقيّة ووجدانه الديني، وفكره الايمانيّ الملتزم..

دائماً في نقطة الوسط وهو يجابه موجات (الجدل) التي لا تنتهي والتي تثيرها دائماً المسائل «الكلامية» في الطبيعة وما وراءها، والتي يقف فيها الأقل ايمانا ومحبة وفهماً للقرآن، موقفاً متطرفاً ذات اليمين أو ذات الشمال.

ولست أدري لماذا ينتاب الانسان المسلم أحيانا، ذلك الرثاء، المشوب بكثير من الإنكار، لعديد من المفكرين والفلاسفة ورجالات الكلام الإسلاميين وهم ينساقون - رغم عقولهم الكبيرة - متعصّبين، متطرفين، متوترين، الى حدّ التشنّج، بانتمائهم الى هذا التيّار أو ذاك، ناسين ما تتطلبه بداهات الإسلام والإيمان من ضرورة عدم مغادرة الموقف الوسط الشامل المتناغم مع معطيات القرآن، المتجاوب مع

جزئياته وتفاصيله جميعا.

أما كان تاريخنا العقائدي في غنى عن (تظاهرات) المعتزلة الفكرية وتشبثهم المبالغ فيه بالعقل واضطهادهم المذهبي لكل معارض، وهم يقرأون في ما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعا من القرآن دعوة لإعمال الفكر البشري في كل صغيرة وكبيرة، وفي تحريك العقل، تلك الهبة الإلهية المعجزة لحل المسائل الأساسية في حياة الانسان وفهم الأبعاد الشاملة للمعطيات القرآنية.. لكنهم يقرأون في الوقت نفسه، ان العقل وحده ليس بقادر على انتشال الانسان من معضلاته الكونية وانه لو كان قادرا فعلاً على تحقيق هذه المهمة، لم تكن هناك حاجة اساساً لمجيء الأديان وإنزال القرآن.. ويلتقون في عشرات المواضع القرآنية بحقيقة أن وراء هذا العالم، الذي يمكن للعقل أن يتعامل معه، عالم غيبي شامل بعيد، خفي محيط، يندّ عن قدرات الانسان العقلية والحسيّة، ولكنه حق واقع كما ان عالم الطبيعة الملموس حق واقع، وان الايمان به والتسليم بوجوده يجيء بمثابة حجر الزاوية لكل ايمان حقيقي كامل؟

فاذا كان كتاب الله يقدّم لنا المسألة بطرفيها، فلماذا نجنح صوب هذا الاتجاه أو ذاك، ونغادر الموقع الوسطيّ الشامل، المتوازن، الذي منحنا اياه القرآن ان كنا محبين فعلاً لله، لا

لأنفسنا، مدركين لعقيدة الإسلام، محيطين بضرورات كتابه المعجز؟

وغير المعتزلة فرق كثيرة، وفلاسفة وعلماء كلام، اكثر، كلّهم بسبب من توترهم، غادروا الموقع الذي تقتضيه البداهات الايمانية وانتهوا الى حيث لم يرد القرآن ان يذهبوا اساساً، بعضهم مع غرور العقل البشري، وبعضهم مع شطحات الروح والخيال..

واغلب الظن ان ثقتهم العمياء بمعطيات الفكر الوضعي اليوناني او الهندي أو الهلّيني، وانكبابهم عليه يلتهمونه التهاماً، دون ان يقيسوها - الاّ قلة منهم - بمقاييسهم الإسلامية الأصيلة، ودون ان يعملوا فيها نقداً واختباراً وتمحيصاً من أجل أن يعيدوا صياغتها وفق الضوء الجديد الساطع الذي جاء به كتاب الله.. ومن أجل أن يقبسوا منها ما ينسجم وبداهات هذا (الضوء).. هو السبب الكبير وراء هذا التطرُّف، والصراع، الذي شَهِدَتْهُ فترات طويلة من عصر حضارتنا ونموّنا.

وهذا لا يعني - بطبيعة الحال - رفض معطيات الفكر البشري شرقاً وغرباً، فالرسول عليه السلام يعلمنا «إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»... لكن هنالك

شروطاً يجب أن تتوفر أوّلاً قبل الإقدام على التعامل مع فكر نسبيّ كثير الانحرافات، عميق الأخطاء.. وأهم هذه الشروط أن يكون المتعامل بصيراً، عميق الإيمان، صادق المحبة لله، متشبعاً بروح القرآن، محيطاً بخطوطه العريضة وبداهاته الكبرى..

ترى لو تحققت هذه الشروط، اكنّا نشهد ذلك التقابل المتطرف المحزن بين فرق كالمجسّمة والمعطلة، كالمشبهين والمجرّدين.. ضيّع بعضهم اعماره في سبيل إثبات صفات الله والوصول بها حدّ التجسيد البشري، وأهدر بعضهم الآخر طاقاته في سبيل تجريد الله عن كل صفة، وتعطيله عن اية شبهة.. حتى بلغوا به سبحانه وتعالى، حد الانتشار الذي يصل بالمسألة الالهية الى ما يشبه وحدة الوجود؟!

قال أحد المختصين في التاريخ الاسلامي ان منهج البحث العلمي يقتضي تجريد سيرة الرسول ﷺ من أية معجزة أو امتداد غيبي، وأن كل ما قيل في هذا الشأن لا يعدو أن يكون من (الاسرائيليات) المدسوسة، وهو يرفض حادثة شق الصدر التي اشار اليها القرآن ويرى لها تفسيرا علميا غير ذلك المتعارف عليه، كما يرفض القول بأن إسراء الرسول ﷺ ومعراجه تمّا بالروح والجسد وانهما لا يعدوان ان يكونا رؤية

رآها الرسول في منامه.. ويشكك في حسّية المعطيات القرآنية عن الجنة والنار.. وحيثما وجد صاحبنا حديثا نبويا فيه شيء من بعد غيبيّ او اشارة ميتافيزيقية رفض توثيق الحديث، حتى ولو اوردته الصحاح الستة، ما دام معظم ما اوردته هذه الصحاح لا يعدو أن يكون أحاديث آحاد، واما اذا وردت الاشارة في القرآن فهنالك التأويلات (الباطنية) التي تردّ الآية أو المقطع القرآني الى منهج علمي محسوس في التفسير والتحليل.. فلما قلت له :و «الوحي»؟ أليس هو ظاهرة غيبية صرفة لا تخضع للاختبار العقلي، وان مجرد التسليم بها يقودنا الى التسليم بسائر ما ينبثق عنها من وقائع غيبية موثقة وردت في سيرة الرسول ﷺ احاديث صحيحة وآيات بيّنات ؟ سكت الرجل ولم يحر جوابا!!

وفي مقابل هذا التوتّر الذي يعيد الى الاذهان ثانية موقف المعتزلة.. كان هنالك خطيئة اخرى، تتمثل في التطرف والجنوح صوب الجهة الاخرى..وحشد سيرة رسولنا ﷺ بعشرات الوقائع الغيبية، والخيالية، والاسطورية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتحميل حياته بمئات من الدلالات والمعجزات التي تخرج به أساساً عن أن يكون رسولاً بشرا، ذلك الذي حدثنا عنه القرآن﴿قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد!!﴾وحدثنا هو عن نفسه (انما انا ابن

امرأة منكم كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق). ونحن اذا ما قرأنا كتب السيرة عامة، والمتأخرة منها على وجه الخصوص، ارتطمنا بهذا الحشد الزاخر من الاسرائيليات - **قصصاً وشحطات وخرافات - تَصَوَّرَ اصحابها أنها تمنح الرسول ﷺ شرفاً أكثر وترفعه إلى مكانة أعلى.. ولم يدركوا أن شرف النبوة وقيمتها تكمن في واقعيتها وقدراتها المنظورة التي وهبها الله إياها!!**

ونقرأ في كتاب برنارد لويس (اليهودي): (اصول الاسماعيلية) ان كثيراً من الإسماعيليين وأنصارهم اتكأوا على نظرة الإسلام المنفتحة إلى الأديان السابقة ودعوا الى توحيد هذه الأديان وإزالة التعصّب المذهبي بينها جميعاً، واعتبار سائر المنتمين إليها مقبولين عند الله والناس!! ولا بأس أن نقتطف بعض فقرات الكتاب منقولة عن الفصل الخامس المسمى (مذهب الشمول في العقيدة).

يقول:

«صادفت الدعوة الاسماعيلية هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والدين، مزدكيين ومانويين وصابئين وشيعة وسنة ومسيحيين ويهود من كل نوع فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قوياً من مذهب الشمول في العقيدة تتقرب أحياناً من مذهب

غقلي خالص. وقد سبقتهم إلى هذا وربما تأثر بها، عيسوية أصفهان وهي فرقة يهودية (!!) ادعت في أثناء خلافة عبد الملك الأموي بأن محمداً وعيسى كانا نبيين صادقين بالنسبة إلى وطنيهما وشعبيهما اللذين ظهرا فيهما فطوَّر الاسماعيليون هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها وألغي التعصب الديني إلغاءً تاماً.

وخير تعبير عن هذا نجده في رسائل «إخوان الصفا»، **ومنها**نقتبس العبارات التالية التي تمثل النغمة العامة للحرية الدينية (.. وينبغي لاخواننا - أيدهم الله - أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها..)..!!»

إننا هنا لسنا بإزاء نقصٍ في الإيمان أو المحبة وعدم تشبّع بمفاهيم القرآن وبداهاته التي تفرض أن ﴿من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، ولكننا بإزاء مؤامرة خطيرة شاملة وقفت خلفها كل القوى الدينية المهزومة من أجل أن تسلّط نارها على قيم الإسلام وحدوده، وشخصيته المستقلة المتفرّدة لكي تذيبها وتدمّرها جميعاً باسم التحرّر والانفتاح.. إن «برنارد لويس» هنا يعدّد

لنا بنفسه، بعض هذه القوى المهزومة التي عفا عليها الإسلام والتي عادت تحت ستار التشيع والباطنية الاسماعلية لكي تدمر عليه أسسه ومعاييره.

ومن عجب أن برنارد لويس اليهودي هذا يستغرب كيف فزع فقهاء السنة من مذهب الشمول في العقيدة هذا وكيف أسهبوا «في الكلام عن تسامح الدعوة الباطنية الديني وعن محاولتها ضم الناس من كل دين بعرضها لهم ما هو أكثر استهواء وتشويقاً. ويذكر هذا الغزالي أيضاً ويأسف له ويستعيذ منه.»!!

ويختم «لويس» حديثه عن هذه المسألة بقوله «ولم تمت روح التسامح والتحرر (!!) هذه بسقوط القرمطية الثورية، فقد تركت آثارها في السياسة الدينية السمحة للخلفاء الفاطميين وفي التيار القوي لمذهب الشمول في العقيدة في الآداب الاسماعيلية المتأخرة، وأخيراً في تأثيرها في عدد من الشخصيات الذكيّة أبرزها المعرّي وعمر الخيام»!!

ودائماً تبدأ الانحرافات عن هذا الدين بخطأ بسيط وتجاوز غير ذي شأن لكنها ما تلبث - بعد وقت طال أم قصر - أن تنقلب إلى مؤامرات خطيرة تستهدف الإسلام في الصميم.

ولكن ما دامت الكتلة الإسلامية الأكبر والأوسع دائماً،

هي الأذكى والأعمق إيماناً والأصدق محبة لله، والأكثر تشبعاً بروح القرآن.. ما دامت هي الأثقل والأشد تعبيراً عن روح الإسلام والتي تحطمت إزاءها كل المحاولات المنحرفة، الغريبة، وتبددت كل الفقاعات الفرقية المتعصبة المتطرفة..

فلن يخشى على الإسلام.. ولن يكون المستقبل إلاّ لهذا « الدين »!!

الصلاة.. ذلك التناظر المدهش

إن (المواقف) التي اتخذها الاسلام إزاء القضايا المختلفة التي كانت تعرض له حينا بعد حين، أيام دعوته الاولى، كانت تجيء دائما موازية في حجمها وامتدادها لأبعاد القضية أو المشكلة المعروضة، متخذةً من الاساليب المادية أو الفكرية أو الروحية ما يكفل التغلب اليها، أو صياغتها بما يحقق انسجامها ومقاييس ومواصفات العالم الجديد الذي جاء الاسلام لكي يبنيه.

ولنأخذ مثلا على ذلك «الفوضى» و «التسيّب» و «الانفلات» التي درج عليها العربي القرون الطوال في جاهليته، ثم جاء الاسلام (بالنظام) الذي اراد أن يقابل به هذه السلبيات المتأصلة في اعماق العربي تأصل عاداته واخلاقه الجاهلية جميعاً... وكان على ذلك الدين الجديد - اذن - أن يشحذ كل الطاقات ويعتمد كل الاساليب لإحلال النظام محلّ الفوضى، والانضباط محلّ التسيّب والانفلات..

ونحن نقف هنا عند جانب واحد فحسب من جوانب

محاولاته المتشعبة لتحقيق هذا الهدف.. ذلك هو استخدام الصلاة أخطر العبادات في الاسلام وأجلّها، للمعاونة على مجابهة الفوضى وتأصيل النظام في نفس العربي المسلم وفي علاقاته الاجتماعية على السواء.

لقد صُممت الصلاة من حيث التوقيت والاداء الفردي والجماعي على السواء، تصمياً عجبا!! إنها - وهي الفعل الذي يمارسه المسلم خمس مرات في اليوم واكثر - جاءت، ضمن ما جاءت به من جوانب أخطرها ولا ريب الجانب التعبدي الذي يقود الى الاتصال اليومي بالله سبحانه، بمثابة عملية تدريبية دائمة على التزام النظام والانضباط اللذين سرعان ما اكتسبا قدسية الصلاة نفسها، وغدا على المسلم، اذا ما أراد إتقان عبادته الاساسية هذه، ان يلتزم نظامها الزمني والرياضي والجماعي التزاما دقيقا.. .. وهذا التدريب، بحجمه الكبير ذاك،واستمراريته، وقدسيته، وبُعده الروحي، يجيء ولا ريب موازياً لكل سلبيات الفوضى والتسيّب قديراً على أن يتغلب عليها، جديراً باستئصالها من نفس العربي بمجرد انتمائه للإسلام والتزامه المحتوم باداء الصلاة.

لقد وصفت الصلاة بأنها كانت على المؤمنين (كتابا موقوتا)،ووسم الذين يتأخرون عن ادائها في أوقاتها المحددة

بالكسل والنفاق.. ورُفعت درجات الذين يؤدونها في المسجد مع الجماعة الى بضع وعشرين ضعفاً، وطلب من المصلّين أن يقفوا صفوفاً متراصّة متوازيةوألّايتركوا ثغرة ولا خللا.. وقيل لهم اكثر من مرة، ان الله لا ينظر الى الصف الأعوج، ونُدّد بالذين يسبقون الامام في الركوع والسجود، واستخدمت معهم، وهم حديثو عهد بالبداوة، اشد الصور «التجسيمية» الساخرة لردعهم عن ممارسة هذه الخطيئة في نظام الصلاة..وقيل للذين يرفعون رؤوسهم الى السماء،على هواهم، في اعقاب كل ركوع، بأنهم يعرضون ابصارهم - بذلك - لكي يخطفها الله!!

ترى لو لم يجابه العربي، حديث العهد بالبداوة والفوضى، بهذا الضبط وتلك الصرامة المتناهية في تحقيق النظام، أكان يمكن أن تنفّذ تلك التجربة التعبدية الباهرة بذلك القدر من الهندسية والتناظر والاتساق، وسط صحراء لم تكن تعرف - حتى ذلك الحين - شيئاً من بداهات النظام؟!

ومن عجب أن يظل جانب التناظر والاتساق هذا في صلاة المسلمين يحمل طابع الجدّة والجمالية على مرّ العصور، ويحمل الى الاسلام ، حينا بعد حين، اناساً من اكثر مثقفي العالم نضجا وادراكاً ينتمون الى أشدّ الامم التزاما بالنظام وكراهية للفوضى..

وأمامنا حشد كبير من شهادات هؤلاء الذين انتموا لديننا في اعقاب رؤياهم المباشرة لهذا الأداء التعبدي الذي يصل حدّ « الموسيقية » في تناسقه الرياضي، ويحمل من وراء هذا « الشكل » المتناظر الجميل قلوبا وارواحا يعمرها الحب، والايمان، واليقين!!

اذا لم يكن الإلحاد غباءً فماذا يكون؟

مهما قيل في تبرير «الإلحاد» ومهما ادعي من علمية في إقامته على اسس مقبولة فإنه لا يعدو أن يكون بلادة وغباء... بلادة في الاحساس، وغباء في قدرة الفكر على تجاوز المحسوس والملموس والمنظور، والايمان بما وراءها جميعا مما لا تحسّه اجهزتنا المحدودة، ولا تمسه الايدي، ولا تدركه الأبصار.. بلادة في الاحساس الفطري الاصيل بالقوة المتوحدة التي خلقتنا ورعتنا، وستبعثنا ثانية وترعانا، وغباء في طاقة البصيرة على تحطيم جدران النّسبيّات الزمانية والمكانية والنفاذ الى المطلق.. إن إنساناً لا يدفعه تفكيره فى هندسة الكون المعجزة، وتصميم الحياة المذهل على الأرض، ونسيج الانسان المعقد الفذ المتشابك الى الايمان بالمهندس والمصمم والصانع لا يمكن الاّ أن يكون غبيا.. لأن أيما انسان ذكي لا بدّ وان يلمح ويدرك أن وراء هذا الإعجاز والدقة والانضباط ارادة لا تدع للصدفة أن تعبث بها أو تشلها عن العمل أو تنحرف بها شعرة واحدة عن مساراتها المرسومة في علم الله!!

من أجل ذلك وَصَمَ الله الكفار في كتابه الكريم بانهم كالانعام (بل هم اضلّ)!! ذلك ان للانعام غرائز توجهها وتهديها في مضطرب حياتها ونشاطها وبحثها عن إشباع حاجاتها.. أما الانسان فإن تنازله عن لماحية الفكر وذكاء القلب واتقاد البصيرة سيقوده الى درك التخبط والضياع، حيث لا غرائز أو ضوابط تهديه وتحميه من السقوط الى أسفل سافلين، هناك حيث يعمى البصر وتنطمس البصيرة ويرين الحسّ الثقيل على السمع فلا يعود يسمع صوتا، ولا نداء.. وحيث يتلمس الانسان اساليب الهداية والحماية في الامداء القريبة الملاصقة تماما كما تفعل الديدان، فيركب بعضها بعضاً، ويأكل بعضها بعضاً، ويطوق بعضها بعضاً، ويسدّ بعضها الطريق على البعض الآخر... حياة حشرية في دائرة ضيقة من الأرض ليس فيها أية نافذة يطل منها الإنسان إلى السماء، أو يمدّ بصره إلى ما وراء الحفرة حيث النور الوهاج والآفاق الفسيحة والطموح الإنساني الذي لا يعرف حداً يقف عنده.

وإذا كان مصير كالح كهذا لا يقوده (الغباء) وتحدوه (البلادة) فمن إذن يقود ويحدو؟العلم؟ أم الذكاء؟ وهل لأحد ان يجرؤ فيدعي ان العلم والذكاء يمكن أن يقودا الانسان الى

تلك الحفرة المظلمة التي تعلو عليها وتسمو عوالم الأبقار والجمال والأغنام؟

لقد قالها العلماء الكبار مراراً وتكراراً .. أن خطواتهم في حقول العلوم المختلفة قادتهم دوما الى الاعتقاد الذكي المبصر بالخلّاق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه والذي بدونه لا يمكن أن تقوم للكون العظيم، ولا لتكييف الحياة على الارض، قائمة لحظة واحدة من زمان فكيف بملايين السنين؟.. ثم الا يكون غبيّا من يرفض الايمان بأن وراء هذه الفرصة القصيرة في حياتنا الدنيا وجودا أبدياً لا آخر له، ويسعى باختياره البليد الى دائرة التشاؤم والفناء المقفلة، حيث يعيش الانسان ويموت كما تعيش الحشرات وتموت دون اي اعتبار لتميّز الانسان وتفرده على سائر المخلوقات؟

ألا إنه الغباء بعينه يرين بضبابه الكثيف على البصائر والأفئدة والعقول، فيهبط بأصحابه إلى دركات الضلال.. وصدق الله العظيم عندما يقول في أكثر من موضع: ﴿اولئك كالأنعام، بل هم أضلّ!!﴾.

الكلمة عندما تشيخ

عجيب أمر مفرداتنا اللغوية.. ان كل واحدة منها أشبه بالكائن الحيّ الذي يتنفس ويحيا ويستيقظ وينام ويتفاعل مع البيئة فينفعل بها ويتأثر بمعطياتها ويكتسب الملامح التي تعينه على التواصل معها والانسجام مع ظروفها الآنية، وان يكون بالتالي (ابن بيئته).

ولا يتصور أحد ان هذه السمة تحمل في ثناياها صفة (الايجاب) فحسب بل هي تحتوي في الوقت نفسه كل السلبيات التي ترافق اية (حياة) متحركة متطورة غير جامدة ولا ساكنة. وأبرز تلك السلبيات تعرضها - بمرور الزمن - للشيخوخة والذبول، وفقدان البريق الزاهي الذي كانت حروفهاتشعه ايام الشباب.. هذا فضلاً عن غياب روحها الحقيقية ونقائها الذاتي وتواريها خلف حجب صفيقة اقامتها مسيرة الزمن بحيث يغدو من الصعوبة بمكان التعامل العفوي مع المضمون الاصيل والدلالة الحقيقية للكلمة كما كانت الحال ايام صباها وشبابها فيتوسل اليها بإعمال الذهن والرجوع الى

المعايير والتحليلات المعجمية علها تمزق الغطاء عن اعيننا وتوقفنا على جوهر الكلمة الاصيل... وشتان بين ان تعطيك «الكلمة» بعفوية ودونما تكلف، روحها وجوهرها؛ وبين أن تسعى انت، بأساليب غير مباشرة إلى التوصل لحقيقة هذه الروح... وربما لن تصل ابداً!!

وليس مر الايام والسنين وحده هو الذي يرهق الكلمات، ويقودها الى الشيخوخة والتلفّع بالأردية خوفاً من البرد، فهناك التكرار الذي يرين بغباره المدوّم على روح الكلمات ونفسها العميق، فيقرب بها يوماً بعد يوم من السطح، ويبعدها عن اعماقها وجذورها.. وما اسهل - من ثم - أن تتحرك الاشياء، وهي تطفو على السطح، دونما جذور تشدها الى مواقعها الحقيقية الثابتة... ما أسهل أن تتحرك الى مواقع أخرى وأماكن جديدة، تعطيها معنى غير معناها الحقيقي، ودلالة غير دلالتها الأصيلة ... وهكذا فقدت كثير من كلماتنا شخصيتها ونفسها، ولبست أردية، وتزيَّتْ بأزياء اختفت في طياتها تلك الشخصية واختنقت تلك الانفاس!!

واي منا لم يسمع، خمس مرات في اليوم على الاقل، شهادة **«لا إله إلا الله »؟ وأي منا لم تصادفه مراراً كلمة (الذكر)؟ ان** هذه الكلمة بالذات هي أبرز مثل نسوقه بين يدي هذه الملاحظة السريعة.. وإلاّ فأي بحر شاسع يفصل بين جوهر هذه

الكلمة ودلالتها ايام صباها، وبين ما توحي به اليوم وهي تعاني أزمة البرد وآلام المفاصل؟ بين معنى اصيل يجعل الله في قلب كل انسان، ويجعل كل انسان في قلب آلاء الله ويخلق اجواء روحانية شفافة لا يغيب فيها الانسان عن الهه، ولا يبعد هذا الاله - جل شأنه - عن حسّ الانسان وخاطره ووجدانه وعقله وفؤاده ويدفع في كيان الانسان بشحنات دائمة من كهرباء الايمان التي تدفعه الى أن يطمح الى المستحيل فيحققه، ويقدم على المخاطر والملمّات فيجتازها، ويهفو الى متع الله الطيبة فيتحقق بها، ويرنو الى الكون في امدائه الفسيحة فيندمج فيه، ويناجي الله، لا بمنطق الحروف المسموعة والكلمات ذات الجرس ولكن بايماءات العين ونبضات العقل وخطرات الفؤاد.. فيزداد حباً له وقرباً منه ورغبةً في رضاه وجهداً بطولياً في تجاوز الصغائر وتمزيق الحجب وتحطيم العوائق للوصول الى الافق البعيد الجميل الذي يتوحّد فيه الانسان مع ذاته وينسجم مع قيم الكون والعالم ونواميسهما... الدلالة الأصيلة التي تقود الانسان الى افق (الاحسان) الوضيء الرحيب حيث يعبد الله كأنه يراه.. فإن لم يكن يراه فانه يراه!!

أي بحر شاسع يفصل بين روح هذه الكلمة وبين ما آلت اليه؟ ما الذي يعنيه «الذكر» وهو يشيخ بين أيدينا؟ همهمة

بالكلمات، وطقطقة بحبات السبح، وإيماءات ظاهرة بالأيدي والأعين، وتشبث باللحى الطويلة والنظرات المسترخية الكسولة، والحركات البطيئة المتعبة، والقعود الطويل في المساجد والزوايا، والاندماج في الممارسات الظاهرية، والانقطاع عن المعاني الحقيقية الكبرى في أعماق الكون... ودروشة وزهداً وفراراً من الحياة... ما الذي آل بالكلمة إلى هذا المصير؟

إننا يجب ألاّ نلقي التبعة على الكلمة وحدها، التي قطعت آلاف الاميال ومئات السنين حتى وصلت إلينا متعبة مكدودة.. ولكننا نحن أيضاً نسهم بنصيب فيها لأننا - وقد شخنا وتعبنا - آل تعاملنا مع الكلمات إلى التشبث السهل بظواهرها وأرديتها الخارجية، دونما سعي جادّ حريص على الكشف عن جوهرها ومعانقة روحها الأصيلة... ومن ثم فإن هذه العلاقة التأثيرية المتبادلة بين الإنسان والكلمة وبين الكلمة والبيئة هي التي تحدِّد موقع الكلمة قرباً من جوهرها أو بعداً عنه..

وهذا هو الذي يجيبنا عن سؤال خطير يطرح في مجال كهذا : هل إن الموت، وقد شاخت الكلمات محتم ان يحلّ بساحتها؟ أو على الاقل هل اذا ما وصلت كلمة ما مرحلة الشيخوخة قضي عليها أن تتحجر وفق شكل ما، وتبقى

هكذا مئات السنين؟

والجواب: كلا!! فبأيدينا نحن أن نعيد الحياة إلى الكلمة، وأن نفجر فيها مرة أخرى روحها الأولى، بمجرد أن نكون أكثر جدية وإيجابية في تعاملنا مع الكلمات، أو بمجرد أن نتخلى عن مواقع الكسل والخمول في هذا التعامل، وأن نحمل في عقولنا ووجداننا وأفئدتنا فكراً عميقاً، وثقافة واسعة، وحسّاً (فنياً) تنأى بنا عن العلاقات الآلية مع لغتنا.

وانذاك سوف تكشف كلماتنا - ثانية - عن جوهرها الاصيل المشعّ الذي ران عليه غبار الزمن والتكرار، والعلائق الآلية الرتيبة بين الانسان والكلمة..

فلنحاول ان نجرب ذلك، ولنبدأ بكلمات الله المعجزة التي ما لها من نفاد.. ولنتذكر كيف كان العرب عند ظهور الاسلام اكثر تواصلاً مع كلمات القرآن واندماجاً في آياته وإدراكاً لمضامينه، وإحساساً غامراً بمواطن اعجازه اللغوي..كانت علاقاتهم العفوية بلغتهم تدفعهم - دونما تكلف - الى اعماق معانيها ودلالاتها وهذا هو الذي قاد حشود الجاهليين الى ان تفتح قلوبها، وترمي عنها الحجاب، وتحث خطاها الى دين جديد هذا قرآنه وتلك آياته.. أو على الأقل دفعها - رغم تشبثها بمواقع الجاهلية - إلى أن تعرب

عن دهشتها وحيرتها وإعجابها بسحر الكلمات القرآنية وجمال آياته المعجز.. تماما كما قاد حشدا آخر من العرب - من ناحية اخرى - الى أن يدركوا بوضوح، المغزى العميق البعيد للقيم الانقلابية التي طرحها الاسلام فازدادوا جمودا ومقاومة وشراسة وإنكارا!!

الموقف الرخيص

إن مثقفينا، بالاحرى متعلمينا وأنصاف مثقفينا، يقفون ازاء كثير من القضايا والقيم الاسلامية، موقفا رخيصاً فجاً مستعجلا، غير علمي ولا متأنٍ ولا مسؤول، الأمر الذي يجعلهم يصدرون أحكاماً سريعة، مشوهة، مبتورة، تجيء نتيجة منطقية لمواقفهم تلك، كما تكون سببا في الوقت نفسه لهجومهم على الاسلام وتنكرهم له ورفضهم إياه...

وتظل هذه الحلقة المفرغة، والمحزنة، تتضخم وتتضخم: المواقف الخاطئة تقود الى مزيد من الرفض والتنكر، والرفض والتنكر يقودان الى مزيد من المواقف الخاطئة.. حتى صرنا نجد «تقليدا» عصريا يكاد معظم المتعلمين يمارسونه ،تماماً كما يمارسون الشارلستون والميني جيب والذقون الطويلة والكعوب العالية والشعور التي لا تعرف أين يقف صاحبها في ميدان التصنيف بين الذكور والإناث..!!

قال أحدهم ، وهو طالب جامعي، ان الاسلام يرفض

الشِّعر، والرسول يحتقره، والقرآن يشن حملة تحريم قاسية ضدّه..

وقال اخر - وقد عاد أخيراً من إنكلترة يحمل شهادة الدكتوراه في الآثار الاسلامية - إن القرآن قد مارس خطيئة كبرى بصدد اليهود، إذ أنه بتركيزه البالغ عليهم، أمةً وتاريخاً، أنبياء وأفراد عاديين دفعهم إلى الضوء، وأعطاهم قيمة أكبر من قيمتهم الحقيقية، كما أنه مجّد أنبياءهم ورجالاتهم بما لا يستحقونه أساساً كشعب مشرّد ذليل... قال - الدكتور نفسه - إن القرآن يحدثنا كثيراً عن وقائع تاريخية قديمة، ويقصّ علينا قصص أمم وأنبياء شتى، لم تؤيدها الحفريات الحديثة، ولا الدراسات الآثارية للتاريخ القديم، كما أن دراستنا لآداب الشعوب الأولى تلك لا تلتقي - أحياناً - مع ما يطرحه القرآن..

وقال ثالث: إن الاسلام جاء ثورة على الوثنية ودعا الى استئصال الأوثان والاصنام، ولكنه وقع في تناقض واضح عندما أمر المسلمين بالحج الى الكعبة والطواف حولها وتقبيل الحجر الاسود، إسوة بما فعل الرسول!!

ولقد حدّثت هؤلاء وغيرهم عن قضايا (الشعر) و (الامم القديمة) و (الحجرالاسود) وغيرها من المواضيع والمسائل التي

يقفون منها موقفاً رخيصاً، فجّاً، مستعجلاً غير علمي ولا متأنٍ ولا مسؤول، فانصرفوا مقتنعين..

إن الاسلام لم يرفض الشعر والرسول لم يحتقره، ولا شنّ القرآن حملة تحريم قاسية ضده.. كل ما هنالك أنها دعوة (للالتزام) موجهة للشعراء، وتحويل العطاء الشعري من ندبٍ للذات، وهيمان في الضباب، الى كلمات تؤمن وتقاتل وتنتصر للمظلومين على الظالمين، وان (سارتر) نفسه أكد هذه الحقيقة اذ قال «اذا لم يكن الاديب حليفاً للمظلومين على الظالمين، فلن يكون إلا شريكاً للظالمين».. ولكن هذا لم يَعْنِ أبداً - في معايير الاسلام وقرآنه ورسوله - رفض لشعر الحب والجمال والعواطف الشفيفة، وإلا لما منح الرسول ﷺ بردته للشاعر كعب بن زهير إعجاباً بقصيدته التي بدأها بالتوجع على فراق حبيبته سعاد!!

والحفريات والدراسات الآثارية ونقد الأدب القديم لا تحتمل اليقين المطلق من جهة، وهي حتى لو احتملته فانها لا تغطي من الواقعة التاريخية سوى نسب ضئيلة لا تتجاوز، على أحسن الظن، العشرة بالمائة من مساحة تلك الواقعة بسبب أفاعيل الزمن بالبقايا الآثارية، دماراً وتغييبا، من جهة أخرى..

وحتى يحين الوقت الذي تكتشف فيه كل الآثار القديمة،

وتشخص وتصان، بحيث تبلغ مبلغاً تكاد فيه أن تغطي الواقعة التاريخية، وهذا مستحيل كما هو معروف في بداهات علم الآثار، فإن لك أن تصدر حكمك على آيات القرآن وقصصهِ وتقول أنها لا تنسجم وعلم الآثار.. فهي – من ثم – ليست علمية!!

وأنت نفسك تقول بأن اليهود المعاصرين كانوا يستأجرون بعض علماء الآثار لقاء ثمن مغر، كي يجوسوا منقبين في صحاري الاردن واليمن والحجاز، ويزيفوا بعض الحقائق التاريخية لصالح اليهود، باعلانهم عن اكتشاف حجر أو أثر يؤكد كذا وينفي كذا...فما اسهل اذن ان يتخذ هذا العلم (الناقص) (الجزئي) سلاحا ذا حدين يتوسل به للوصول الى جوانب من الحقيقة التاريخية حينا، ولا أقول الحقيقة كلها لان هذا مستحيل، ويستخدم حينا آخر لتزييف الحقائق وتزويرها.

وزيارة الكعبة والطواف حولها وتقبيل الحجر الأسود ليست من الوثنية في شيء، بل هي تقييم «معنوي» لمعلمين من معالم أول بيت رفعت قواعده في المنطقة لعبادة الله وحده، تماماً كما تقيّم نصب الجنود المجهولين في عواصم العالم بباقات الزهور، وبمواكب حزينة مهيبة، يسير فيها رؤساء العالم وزعماؤهم...

ومعروف قول عمر بن الخطاب (رض) وهو يخاطب الحجر الاسود «والله لو لم أجد رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك»!! فهو ليس مقدساً في ذاته، كما أن نصب الجندي المجهول ليس مقدساً في ذاته، ولا يوجد في مقاييس الاسلام شيء مقدس في ذاته سوى كلام الله.. ومعروف أيضا إقتلاع عمر بن الخطاب (رض) للشجرة التي تمّت تحتها بيعة الرضوان قبيل الحديبية خوفاً من أن تتحول الى وثن قدسي تشدّ اليه الرحال، وينصبّ عنده المال.. واتجاه المسلمين جميعا، خلال صلواتهم، في مشارق الارض ومغاربها،صوب البيت الحرام، انما هو تحديد لوجهتهم صوب القبلة الواحدة والمصير الواحد، وإلاّ فإن القرآن الكريم نفسه قد بيّن لنا بوضوح أن ﴿لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾!!

والمسألة - أولا وأخيراً - ليست في مناقشة جزئيات كهذه، اذ سيبقى الموقف الرخيص غير العلمي من قيم الاسلام، ماضياً كما هو يتحرك صوب جزئيات أخرى ويعاملها بنفس الاسلوب.. وانما في التغيير الجذري للموقف، والتحول منْ مواقع الرخص والتسرع والفجاجة والجهل واللامسؤولية الى مواقع التأني والتقدير والروية والنضج والعلم والمسؤولية، وأول

مستلزمات هذا التحول أن يرجع (المثقف) بأمانة العالم وحرص المسؤول الى كتاب الله وسنّة نبيه لكي يلمّ بالابعاد الحقيقية لكل مسألة من مسائل الاسلام وقيمة من قيمه.

ومن قبل ذلك كان بعض المستشرقين قد مارسوا بحق الاسلام خيانة للعلم والمسؤولية كهذه ووصلوا الى نتائج ليست بارفع مستوى من هذه التي تحدثنا عنها قبل قليل.. وإلا كيف سمح أحد كبار المستشرقين لنفسه أن يقول «أما القانون الجزائي في الاسلام فقد ظل على مستوى يقرب من السذاجة وهو لا يمثل إلا تقدما ضئيلا بالنسبة الى مفاهيم القانون في الوثنية القديمة، فالقاتل عرضة للموت من طريق الثأر، والقتل من غير تعمد يعوض عنه بالدية تدفع الى اهل القتيل...... وقد يقتص لضروب الاذى الجسماني التي يلحقها شخص بآخر وفقا لمبادىء المقابلة بالمثل (عين بعين وسن بسن). ولكن المجرم يستطيع ايضاً ان يفتدي نفسه بالتعويض على غريمه بالمال. وعقاب السارق قَطْعُ يده اليمنى، فاذا عاد الى السرقة خضع لتشويه جسدي آخر. وعقوبة الزنا مئة جلدة بالسوط، بيد أنه اذا أغوى رجل غير مسلم امرأة

مسلمة فعندئذ يصبح عرضة لعقوبة الموت. أما من جدّف على الله او على النبي وأسلافه فيعاقب بالموت كالمرتد عن الاسلام، اذا ما أصرَّ على كفره»...

العودة الى مرافىء الاقليمية

قصة عراقية.. شعر عراقي.. اغنية عراقية.. فولكلور عراقي.. مسرح عراقي.. قصة سورية.. شعر سوري.. اغنية سورية.. فولكلور سوري.. مسرح سوري.. قصة تونسية.. شعر تونسي.. اغنية تونسية.. فولكلور تونسي.. وهكذا نبحر ضد أنفسنا واهدافنا ووجودنا، باختيارنا هذه المرة،للوصول الى مرافىء الاقليمية التي عفّى عليها الزمان، والتي كافحنا ضدها ما يزيد على نصف القرن..

يومذاك كان الاستعمار هو الذي يسوقنا، ويقطعنا الى أمم وكيانات، واقاليم واقوام، وعشائر: البربرية، الفينيقية، الزنجية، الغسانية، الفرعونية، الآشورية.. كان يسوقنا ويقطعنا بكل وسيلة، وبأي اسلوب يمكن ان يعجل بتحقيق اهدافه.. ولم يكن ثمة سلاح يوما، كما انه لن يكون، اكثر مُضياً وتأثيراً من سلاح « الغزو الثقافي » و « الحرب الفكرية »..

ومن خلال هذا الباب الواسع هبّت علينا أعاصير الغرب الاستعمارية لتدخّن على قيمنا المشتركة، وتسفو التراب على

عقيدتنا ولغتنا، وتكفن بالغبار اذواقنا وعاداتنا وتقاليدنا المشتركة، وكل ما يجمعنا في وحدة ثقافية واحدة.. ثم لتعمل، من خلال الدخان والتراب والغبار، بمشرطها تقطيعا وتمزيقاً..

وعبر الثغرات التي فتحوها في جسدنا، مرّت افكارهم وجيوشهم على السواء..

واليوم - نعود ثانية - لكي نمارس بارادتنا هذه المرة، عملية التدخين والتتريب والتغبير على كل ما هو مشترك بيننا كأمة عربية مسلمة متميزة بين الامم، ولكي تسلّم المشارط الى الايدي التي تعرف كيف تقطع وتمزّق كما تعرف كيف تعمق الشقوق التي حفرت بين المصري والسوداني، والمغربي والموريتاني، والليبي والتونسي، والعراقي، والسوري، والسعودي واليمني.. وتعود النزعات الاقليمية اقوى واكثر تنظيماً من ذي قبل، لكي تدمر علينا وحدتنا كأمة، وتقتلع من الجذور كل ما يشدنا الى بعضنا ويمنحنا الأمل بأننا سنعود الى الوحدة الضائعة، في يوم قريب او بعيد..

إن مهرجانات أسبوعية حاشدة تقام للشعر الشعبي في سوح الجامعة نفسها، وفي أروقة الكليات التي كان من المفروض ان تمارس مهمة حماية اللغة لا تدميرها.. ومجلات

شهرية تصدر من أجل حماية المقومات المحلية في بلادنا من التبعثر والنسيان.. هذا بينما تدق أجهزة الاعلام كل يوم وكل ساعة على الوتر نفسه، وهو أن هناك فنّا عراقيا او سوريا، وقصة عراقية او مصرية، ومسرحاً عراقياً اوكويتياً، وشعراً عراقياً او سودانياً.. واين الإطار العربي الشامل، ما دامت هذه المعطيات تكتب جميعاً بلغة القرآن، وما دمنا نسعى الى تعميق وجودنا كأمة متوحدة، متميزة في عالم الثقافة والعقيدة، والفكر، واللغة، أيعني هذا انه لن يكون هنا، في يوم ما، شعر أو فن أو قصة أو مسرح عربي؟

إننا نبحر ضد انفسنا ووجودنا واهدافنا، لكنه ليس من الصعب ان نبحث عن الاسباب.. انها ايدي (الهدامين) الجدد الماهرة، وعيونهم المفتحة جيداً.. يتسلّقون اجهزة الاعلام من كافة جوانبها.. ويبثون عيونهم في كل إتجاه وما أن تواتيهم الفرصة، اية فرصة، حتى يعضّوا عليها بالنواجذ، ويعتصروها حتى النهاية تأكيداً للشقاق الفكري بين امة العرب وتعميقاً للشقوق في عقيدتها وتراثها ولغتها، وتفتيتاً لكل ما من شأنه ان يجمعها يوماً على هدف مشترك في عالم الفكر والشعور..

فعن طريق هذا التفتيت والتقطيع يجد الهدامون الجدد الدرب عريضاً لزحفهم المدّمر الذي يعرف كيف يصل

الى اهدافه.. واذا كانت الهجمة الثقافية الغربية قد قطعت الطريق الى منتصفه فإن «هؤلاء» جاءوا لكي يواصلوا «المشوار»..

ويومها لن ينفع أمتنا فن محلي، ولا قصيدة شعبية، ولا تحفة فولكلورية مليئة بالنقوش والزخارف والالوان!!

لكيلا تأسوا على ما فاتكم...

في القرآن الكريم نداء عميق، لو تمعّنّا فيه قليلا لأدركنا أنه أروع نداء يمكن أن يوجه الى الانسان من أجل أن يرتفع فوق مستويات الخوف والحزن :﴿ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الاّ في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير.لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾!!

إن جل آلامنا ومخاوفنا وأحزاننا ومآسينا تنفجر من إحساس ثقيل مرهق بأن فرصة ما قد فاتتنا، وبأن فرحة ما ستفوتنا عما قريب.. فيسحقنا الندم، ويشلنا الحزن عن الانطلاق الدائم صوب الأمام، من أجل أن نحظى بمزيد من الفرص، ونتحقق بمزيد من الانتصارات..

إن الأسى على فوات شيء أو فرصة ما، غلّ ثقيل يأسر الانسان ويرتد بوعيه الى الماضي لكي يسفح عند نصبه الدموع ويستل الحسرات دون ان يتاح له أن يخطو خطوة واحدة من أرضية الحاضر صوب آفاق المستقبل.. وإن الفرح

الغامر بمكسب وقتي أو نجاح عابر سيعقبه - ان آجلا او عاجلاً - حزن عميق على انعدام الفرح وزوال النجاح.. ومن ثم سيظل الانسان في نقطة التمزق بين الأسى والحزن الى أن تنصرم سنوات عمره، ولا يشعر بمأساة حياته الشقية الا عندما ينظر وهو في آخر الدرب، الى ان كل احزانه ومخاوفه عبر حياته جميعا لم تكن سوى عبث لأنه سوف لن يأخذ معه الى الحفرة سوى الفرح الكبير أو الحزن الشامل الذي لا علاقة له من قريب أو بعيد بهذه الجزئيات الصغيرة التافهة التي تعترض حياة الانسان فإذا ما افلتت من يديه ملأته اسى وإذا ما تراكمت بين يديه اترعته فرحا لا يلبث ان يغور بعد إذ تنكشف له هذه الجزئيات عن فقاعات لا دوام لها الا بقدر ما تخدع الانسان وتلهو به...

من أجل ذلك ينادينا القرآن ألا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا كي نتجرد عن الجزئيات الثقيلة ونرتفع عن مستوى الاهتمامات الزائلة.. ولا نرنو الا الى الفرح الكبير الابدي العميق الذي لا يتحدد بماضٍ أو حاضر أو مستقبل، ولا يتعرض للزوال.... ومن ثم ننطلق بخفة وحيوية، متخلصين من الاثقال والهموم والاحزان، لنعبر عن وجودنا المتوثب الطموح.. ونصنع مصائرنا التي تناغينا وتنادينا من بعيد..

إن كثيراً من الكتاب والفنانين المعاصرين صوروا لنا شقاء الانسان الذي تشده اثقال ماضيه وتطارده لعناته.. وآخرون كتبوا لنا عن تشاؤمهم العميق ازاء إمكانية تحقق الفرح الانساني، وتجاوز مستويات الحزن والخوف.. لكن كلمات من القرآن تبين لنا بوضوح وتركيز كل ما يريده هؤلاء وتزيد عليهم بأن تمنحنا القدرة على التخلص من اثقال الماضي وتجاوز تجارب الفرح الزائل التي تعقب حسرات ودموعا والنفاذ الى المستقبل متخففين متجردين، يغمرنا الفرح الحقيقي الكلي العميق واليقين بأن هذه الجزئيات مكتوبة علينا لكي تعلمنا القدرة على التجاوز والانطلاق.. ويوحّدنا نداء الله سبحانه الذي يعرف كيف ينتشلنا من ليالي حسراتنا واحزاننا ويقترب بنا من الفجر الوضّاء الذي لا غياب لشمسه لأنها تفجر نورها وأشعتها في القلوب والأرواح.

القرآن والكلمة المقاتلة

عندما طرح القرآن الكريم « موقفه » من الشعر، ودعا إلى الالتزام بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا...﴾ لم يكن كثير من الناس حتى عصرنا الراهن، ليدركوا الأبعاد الانسانية الإيجابية الشاملة لهذا الموقف.. فهو قد رفض الشعر الذي لا يؤمن ولا يلتزم... شعر التيه والهيمان في الضباب والفناء الذاتي... الشعر الانهزامي « المغلق» على حدود « الأنا » الغامضة، المتميعة الضائعة حيناً، والطاغية، الظالمة الأثِرَة، المستبدة حيناً آخر..

ودعا بالمقابل إلى شعر الكلمة المؤمنة، المقاتلة، التي ترفع سلاحها الأبدي لتنقضّ على مواقع الظلم والقبح والاختلال، وتحقق « عالم » الخير والحب والحق والعدل والجمال والتوافق والانسجام....

الكلمة التي لا تنطلق عبثاً وترفاً وفجوراً لكي تمنح المتعة

واللذة للظالمين والمترفين، والتي لا تنبعث جزافاً لكي تدوّم في الضباب دونما مقدرة على «التغيير» في مساحات النفس والعالم، والتي لا تذهب سدى في دنيا يضيع فيها الناس، وينتظرون الإشارة الضوئية للبحث عن مواقعهم الصحيحة في الكون والذهاب إليها... الكلمة التي لا تغنّي للطاغية وهو يعذب الناس، ولا تسبّح بحمده وهو يسخر من الناس، ولا تشتري «بكرامتها» ثمناً قليلاً بدلاً من أن تتحول إلى «صرخة» بوجه الطغيان، وانتصار على الظلم، وإيمان عميق بعالم يزول فيه الطغاة والظلمة والمستبدون، والمترفون... عالم لا يحكمه إلا الله العادل، القادر، الحكيم، المريد، الذي لا رادّ لكلماته... الجميل الذي يحب الجمال!!

واليوم ترتفع صيحات النقاد والفنانين في العالم كلّه وفي أرضنا العربية، سيما بعد هزيمتنا أمام اليهود، ترتفع مندّدة بشعر «الذات» المنهزمة، والرومانسية المريضة، والفناء الواني المكدود الذي يتحدث عن العشق والبعاد ويهيم في ضباب الشجن والأسى، في وقت تلفح فيه سياط الظالمين ظهور المظلومين، ويكتسح رصاص المنتصرين صدور المنهزمين... وداعية إلى الشعر «الملتزم» والموقف الفكري «الانساني»، وإلى الكلمة «المقاتلة» التي تتحرك لكي تنتصر على الظلم في كل صوره وأبعاده... شعر ايلغوار واراغوان ومايا كوفسكي

ونيرودا..و ..و ...

ودائماً نجيء نحن متأخرين - وهذا أمر طبيعي ما دامت ليست لنا مواقع على خارطة الحضارة المعاصرة أو أننا نستجدي في خطوطها الخلفية على أحسن تقدير - لكي نفتح أعيننا على دعوات منطقية كهذه.... لكننا ما نلبث أن نقع في مأساة التهويل والتضخيم والمبالغة - وهذا أمر طبيعي أيضاً إذ لا يعدو أن يكون «تعويضاً» عن تأخرنا وخوائنا الحضاري- ونندفع مع الأفكار القادمة إلى آخر نقطة.. فنلغي - في مجال كهذا - كل شعر يغني لعواطف الانسان وأشواقه ويمجد الروح البشري وتحليقه في الآفاق اللانهائية، ويحكم بالإعدام على كل شاعر أو فنان تجاوز «القضية» لحظات لكي يعود إلى نفسه يستجيش فيها جداول الحب واليقين..

وكما عرض القرآن - بإعجازه وتركيزه العميق - الجانب الأول من المسألة فإن الرسول (عليه السلام) وأصحابه الكرام قد بيّنوا لنا بمواقفهم جانبها الآخر... وإلاّ فكيف نفسّر «موقف» نبينا وهو ينزع بردته ويمنحها «الشاعر» الذي ألقى بين يديه قصيدة بدأها بكلمات الحبّ والأسى على ضياع الحبيب؟

القرآن و « حالة الحرب»

الذي يتمعن في كتاب الله جيداً يتلمس بوضوح صيغ عمل مبرمج في شتى مناحي الحياة البشرية، وفي السلم والحرب على السواء.. تلك الصيغ التي تشكل بمجموعها(ستراتيجية) متميزة تمكن الجماعة الإسلامية، الملتزمة المسؤولة ، ليس ان تحافظ على اصالتها وشخصيتها فحسب، بل ان تحدد اسلوب تعاملها مع القوى البشرية والأشياء والاحداث على ضوء علاقات وعلامات وقيم ومؤشرات واضحة كنور الشمس، دقيقة النتائج كالمعادلات الرياضية.

ونحن لو القينا - على سبيل المثال - نظرة شمولية على كل الآيات والمقاطع القرآنية المتعلقه بحالة الحرب مع العدو ، بشكل مباشر أو غير مباشر، لتبين لنا بوضوح عمق ستراتيجية القرآن القتالية وتماسكها وواقعيتها في الوقت نفسه.. ذلك انها تمتد الى كل المساحات، وتضع مؤشراتها على كافة الطرق، وتتوغل بعيداً صوب كل المسالك والمنعرجات، وتهبط باتجاه الاعماق لتصوغ وتوجه تيارات النفس البشرية

وهي تجابه حالة القتال والاستشهاد... ولا تغفل عن جانب دون جانب او تؤكد على(ميدان) ما على حساب الميادين الاخرى... انها تتعامل مع المادي والمعنوي، مع الطبيعة والغيب، مع الجسد والروح، مع الفرد والجماعة، مع الجندي والقائد، مع المهاجم والمدافع، مع ضرورات القتال، وآفاق القيم الإيمانية والمبادىء العليا، مع الأرض والسماء، مع متطلبات المعركة القريبة ونتائجها البعيدة، مع العدو المرئي المباشر، والاعداء المتخفين... مع حالات النفس البشرية في تقلباتها بين الامن والخوف، والاستقرار والهلع،واليقين والشك، والاقدام والاحجام، والفدائية والخيانة..

وهي ستراتيجية مرنة منفتحة على المساحات الأوسع من الزمان والمكان، لا تتحدّد بحدودها الضيقة، ولا تقف عند حدود المعركة بمقدماتها المباشرة ونتائجها القريبة، لكنها تمتد لكي تغطي كل ما يمسّ(حالة الحرب) من قريب أو بعيد،وتشعل الاضواء الحمراء والخضراء على بعد آلاف الأميال قبل المعركة وبعدها.. على الارض التي تتحرك عليها اقدام المجاهدين وايديهم، في الأغوار النفسية حيث تجيش المشاعر المعقدة المتشابكة، وتتشكل المعنويات سلباً وايجاباً.. أو في الساحة الاجتماعيه تلك الجبهة الخطيرة التي تقف عندها ستراتيجية القرآن طويلا ولا تغادرها الا بعد أن تسلط

الأضواء على كل الحالات، وتكشف كل الثغرات،وتقدم كل الصيغ لتكوين جبهة متوحدة، متراصّة، متماسكة، قديرة على ان تحمي ظهور المقاتلين في الخطوط الامامية وتمدهم بسائر متطلبات القتال في الوقت نفسه.

إن كل الآيات والمقاطع المتعلقة بضرورات الإعداد العسكري من مثل ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾ ﴿وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس لكي يعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ وغيرها... ليست على أهميتها الكبيرة سوى حلقة واحدة من سلسلة طويلة من حلقات الإعداد النفسي والاجتماعي والتعبوي والمستقبلي على السواء... وليس بمقدور اية ستراتيجية حرب «وضعية» أن تغطي، عمقياً وعمودياً، كافة المساحات التي يغطيها القرآن..

ونحن في صراعنا الراهن مع الصهيونية، يتوجب علينا إذا ما أردنا حماية وجودنا ومصيرنا، أن نظل في (حالة الحرب) على شتى المستويات الاجتماعية والنفسية والتعبوية، سيما وأن الصهيونية نفسها تمدّ نشاطها القتالي إلى كل هذه المساحات..

ولكن اية استراتيجية يمكن ان تقود خطانا عبر هذه المعركة المتشعبة الواسعة، الممتدة الى كل مكان؟ لقد جربنا

كافة الستراتيجيات فخسرنا، وكادت خسارتنا وانتصاراتنا الجزئية على السواء ان تقودنا الى فم الأسد بمجرد الموافقة النفسية أو العملية على اسقاط (حالة الحرب) مع العدوّ.

جربنا كل الستراتيجيات ولكننا لم نجرب ستراتيجية القرآن رغم انها تقود، وفق معادلاتها المعجزة،الى النصر... فلماذا ؟!

روعة التناظر أم قوّة التنفيذ؟!

ليس المهم هو وضع فكرة (مهندسة) رائعة ، وصياغة مذاهب تبهر بحتمياتها وعلاقاتها الرياضية وتناظر زواياها.. الابصار.. انما المهم هو مدى(واقعية) هذه الفكرة، وامكان تنفيذ معطياتها على مستوى النفس والجماعة البشرية والعالم.. بعبارة أخرى ليس المهمّ رسم مثاليات معلقة في الفضاء، وتنبؤات تشق حجب الغيب صوب عالم لا ظالم فيه ولا مظلوم..

انما الأهم من ذلك تغيير واقع الحياة البشرية نفسها، والتحرك بها من مواقع القسوة والاختلال والفوضى الى عالم العدل والتوافق والانسجام ، وتحقيق مستقبل مرئي يغيب فيه الظالم والمظلوم.. فما أسهل أن يجلس الإنسان إلى مكتبه لكي يخطط على الورق مذاهب وأفكاراً وعقائد ينشد فيها تقسيما بارعاً للخطوط والمساحات،وتوزيعا بارعاً للأضواء والظلال، وتدرجاً معجزا للزوايا والأحجام والابعاد.. تماماً كما يفعل الفنانون وهم يجلسون الى لوحاتهم وكتلهم لكي يخرجوا

للناس رسماً جميلاً وتمثالاً يبهر الأبصار!!

وما أسهل أن يستنطق المذهب أو النظرية مقولات العقل واشارات الخيال وموحيات الإلهام، لكي يصنع من ذلك كله مذهباً اجتماعياً أو نظرية فكرية لا تعدو في مداها التطبيقي أن تكون تمثالا ساكنا لا يقدر على ممارسة التغيير والتحوير.. وما أسهل على المفكر أن يجوس مساحات التاريخ البشري لكي ينتقي ويختار من بين ملايين وقائعه، عشرات أو مئات منها يجيء بها كاثباتات تعزّز وجهة نظره وتمنح بعداً تاريخياً واقعياً للنظرية التي يريد طرحها على الناس..

تلك هي مأساة الفكر الوضعي، وذلك هو البعد الحقيقي لجلّ المذاهب التي طرحها مفكرون وضعيون على مدار التاريخ، ابتداء من ارسطو وسقراط وأفلاطون وانتهاء بسارتر وروجيه دوبريه وغارودي، مرورا بالقديس أوغسطين وتوماس مور، والاشتراكيين الطوباويين: سان سيمون ولوي بلان وروبرت أوين.. ثم هيكل وماركس وإنكلز وشوبنهور ونيتشه وفرويد ودركايم، ومئات غيرهم، فبهرت نظرياتهم الابصار، وتعلقت بها أجيال من بني آدم رأت فيها اتساقاً في المساحات، وتناسقاً في الأحجام، وتناظراً في الزوايا، ودقة في

توزيع الخطوط والالوان، وبعدا عجيبا في شق حجب الغيب وتقرير مصير العالم، واقناعاً منقطع النظير بحشد من الوقائع والأدلة التاريخية جيء بها إثر جولة غير كاملة في التاريخ..

لكنهم لم يروا فيها شيئا واحدا، هو أشدّها أهمية، ذلك هو امكان(تنفيذ) هذه البرامج النظرية المغرية في واقع الحياة.. جمهورية افلاطون، ومدينة الله المقدسة،واليوتوبيا السعيدة، وتجلي المتوحّد، وظهور السوبرمان، وقيام الجنة البروليتارية من خلال دكتاتورية العمال!!

هذا بينما شهدت البشرية، في الجانب الآخر، تجارب تاريخية غير متمذهبة ولا ملتزمة بنظرية ما، تجارب لامست الواقع وعاشته، ولكنها لم تغادر يوماً - من خلال واقعيتها تلك - مواقع الظلم والاستغلال والقسوة والاختلال والطغيان..

وبين هذا وذاك، بين النظريات(التجريدية) التي لا يمكن إنزالها من سماء(المثال) الى أرض(الواقع) وبين الممارسات البدائية الارتجالية الفجة التي لا يمكن الارتفاع بها عن مستنقعات الواقع الى سماء (المثال).. يقف الاسلام - كتصميم نهائي كامل للديانات الكبرى المنزلة الى

الارض- يحمل إعجاز التوافق بين ضرورات الواقع ونسب المثال الباهرة، بين متطلبات الارض ونداءات السماء ،بيَن تمخُّض الحركة الاجتماعية وبين التصميم الهندسي الرائع الذي يعرف كيف يوزع الخطوط والاحجام والمساحات، ويناظر بين الزوايا، ويفرش الاضواء والظلال، ويناغم بين الدرجات.. مجتازا حجب الغيب صوب المستقبل، لا لكي يمارس خيالاً وسحرا وطوباوية وتنجيماً، ولكن لكي يحدّد مصائر الناس والحركات والاشياء في أمداء العالم وعرض الكون.. ومتوغلاً في الماضي، لا لكي يمارس تزييفاً للتاريخ بانتقاء الوقائع التي تلائمه، وتزوير واستبعاد الوقائع الأخرى، وانما لكي يستمدّ من مجموع الوقائع والعلاقات التاريخية الأدلّة والقناعات والسنن والنواميس التي على ضوئها ما خابت تجربة بشرية عرفت موضع أقدامها في الارض ورفعت رأسها الى السماء!!

اسطورة الانعكاس والرفض

كثيرة هي الكلمات والتعابير والآيات والمشاهد الخاصة بالجحيم واللهب والسعير والنار والحرّ والدخان في قرآننا الكريم..

ومنها استنتج بعض المستشرقين والباحثين « الجدد » وفق مناهج « بحثهم » المعروفة، حقيقة، تصوروها غاية في الموضوعية والأهمية، تلك هي أن هذه « الكثرة » الواضحة لكل ما هو حارّ، يكوي!! ويتفجر بالحمم واللهب، إنما جاءت انعكاساً حتمياً لظهور القرآن في بيئة صحراوية، حارّة، يفترس قيظ الصيف أبناءها، ويمتصّ حرّ الظهيرة كل ما في أجسادهم من ماء.. ومن ثم كان « الحرّ » عدوهم اللدود، والشبح الذي يطاردهم معظم ساعات النهار، وجلّ أشهر السنة... فإذا أردت أن تخوفهم وترعبهم وتلقي النغصة في نفوسهم صورت لهم « اليوم الآخر » كذلك، جحيماً لا يطاق حرّه، قائظاً يتفجر باللهب، غاضباً تنادي جمراته المخيفة بالويل والثبور.

وبهذا التخويف المستمد من واقع «التجربة» الصعبة، سيذعن العربيّ ويطيع للدعوة الجديدة وإلاّ فإنه، في حياته الباقية، سيخلّد في نار هائلة لا تبلغ نار صحرائه منها، القطرة من البحر العباب!!

فإذا قرأت على «هؤلاء» الآية التي تصف المؤمنين يوم القيامة، في الجنة، بأنهم ﴿متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ وأنها تطرح في الوقت نفسه، نقيض الحر والجحيم، الزمهرير، كمصدر من مصادر العذاب، قالوا لك إن معظم ليالي الصحراء تجيء - لقاريتها - باردة لا تطاق، فهي لا تقلّ أذى للبدوي عن أذى الحرّ والقيظ، إن لم تزدها أذى، لأن الفقير لا يجد ما يغطي به جسده المقرور، فهو، من ثم، تعبير ينبثق هو الآخر عن «التجربة البيئية».

فإذا قلت لهم إن القرآن الكريم يطرح، في عشرات المشاهد، صوراً للعذاب النفسي والحسّي تتجاوز حدود الحر والقرّ إلى مسائل الطعام والشراب والهجر والقطيعة، والنفي والاحتقار... نقّبوا لك في آيات القرآن وجاءوا ببعض صنوف الطعام المقدمة يوم القيامة لأهل العذاب، تحمل أسماء نباتات شوكية جافة، لا تحوي قدراً كافياً من الغذاء. وقالوا

لك:أترى؟... إنه انعكاس آخر للبيئة الصحراوية المليئة بالأشواك!!

فإذا طرحت عليهم صيغاً أخرى معاكسة تماماً لما يجري في بيئتهم الصحراوية، مما نجده في مشاهد أهل النعيم من عيون ثرّة وأنهار متدفقة، وثمار كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، قالوا لك إن هذا هو الآخر يجيء بمثابة تحفيز للبدوي الذي لم يشهد في بيئته إلاّ شحّاً في هذه الخيرات لكي ينتمي إلى العقيدة التي تقوده إليها يوم الحساب!!

وهكذا يمكن أن تجد هؤلاء الباحثين، يتخذون هذه المقارنات السخيفة لربط المعطيات القرآنية بالبيئة العربية، ربطاً قسرياً محكماً، سلباً وإيجاباً، كهواية يتشدّقون بها حتى ولو أوقعتهم في عشرات من التناقضات الأساسية مع مناهجهم ذاتها، كما رأينا في هذا المثال..

إنهم يصلون حدّ السذاجة - أحياناً - وهم يعتمدون أسلوبين متناقضين في مسألة علاقة المعطيات القرآنية بالبيئة العربية، ينتقلون من أحدهما إلى الآخر باتجاه معاكس تماماً، كلما أحسوا أنه غير قادر على تفسير وتبرير مواقفهم تلك... فهم يردّون نصف القرآن إلى البيئة العربية باعتباره انعكاساً صادقاً لها.. ويردّون النصف الآخر إلى البيئة نفسها باعتباره

رفضاً لها وتمرداً عليها..

وماذا يبقى بعد هذين الموقفين؟... وهل كان على القرآن أن يتنزل تهاويم وأسراراً وألغازاً وطلاسم معلقة في الأذهان الكهنوتية، مربوطة بسماء الأحلام والتأويلات، بعيدة بالكلية عن أن تلامس بيئتها وواقعها لكي يطمئن هؤلاء، عند ذلك، أن القرآن ليس وليد بيئته، وأنه منزل من عند الله؟!

إن القرآن ما جاء لكي يمارس ازدواجاً وثنائية بين الواقع والمثال.. إنما تنزل منجماً، وعلى مكْث لكي يلامس الوقائع ويوازيها، معلقاً، موضحاً، متقبلاً ومفنّداً.. ولنا أن نطلع على أسباب النزول لكي نرى ثقل هذه الواقعية والمباشرة التي عن طريقها تمكنت كلمات الله من الانتقال العملي بالعرب من حال إلى حال.. فصاغتهم صياغة جديدة، ونقلتهم إلى عالم جديد.

ولكن هذه «الواقعية» ما كانت تعني أبداً التصاقاً بالبيئة أو ردّ فعل بسيط لمعطياتها، لأننا نجد في القرآن - في الوقت نفسه - عشرات، بل مئات، من المواقف والقيم والتغيّرات التي جاء لكي ينفذها أو ينقل العربي إليها، وهي لا علاقة لها ببيئة محدودة، رفضاً أو قبولاً، سلباً أو إيجاباً،

وإنما تسعى إلى أن تمسّ الانسان وتخاطبه وتحوّله من مواقعه إلى مواقع أخرى، أياً كان هذا الانسان ، عربياً أم غير عربي، مدارياً أم صحراوياً، أبيض أم أسمر، يعيش في القرن السادس للميلاد أم في القرن العشرين. وليست « العالمية » التي دعا القرآن إليها في وسط بيئيّ لم يكن يعرف شيئاً عن بداهات الوعي والتوحد السياسي، حتى في الإطار القومي، سوى مثل من الأمثال..

في هذا التناغم.. في هذا التوافق بين الواقعية والشمول، بين الجزء والكل، بين الآنية والمطلق، يكمن إعجاز القرآن واستمراريته على الفعل والتغيير.. وتجيء حكمة الله وسرّ كلماته الخالدة ﴿انا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولا يعني « الحفظ » ههنا أن يظل القرآن كتاباً معلقاً على جدران المكاتب ورفوف الغرف المنسيّة، إنما ذلك الذي يحمي كلماته من التزوير ويبقي على فاعليته وقدرته الأبدية الفذّة على تغيير مواقف الانسان، وتشكيل مصيره في كل زمان ومكان..!!

لأنه يعلم السّر!!

﴿لأنه﴾.. ﴿يعلم السرّ في السماوات والأرض﴾، يجيء فعله بكلمة ﴿كن﴾ قادراً على ان يصنع كل شيء.. على أن يفكك ويشكل.. على أن يهدم الكون ويبنيه من جديد في دقائق ولحظات، بل في جزء لا نقدر على قياسه من الزمن العجيب.. ﴿كن فيكون﴾.. وصـــدق جلّـــت قدرتـــه، وتعالـــت عظمته..

الحق ان في القرآن الكريم تعابير وكلمات، نمر بها حيناً مروراً سريعاً، فلا ندرك بعدها الحقيقي ، ولا نمدّ ابصارنا في أعماقها المدهشة.. لكننا، بين الحين والحين، ووفقاً «لوضعيتنا» الذهنية والنفسية، نتوقف عندبعض هذه التعابير والكلمات.. وما أشد دهشتنا واهتزازنا ونشوتنا وحزننا وفرحنا عند ذاك..

وعند ذاك ندرك المعنى الحقيقي لقوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾. وانني ادعوكم لأن

تجربوا بأنفسكم.. لأن تذوقوا هذه الحلاوة، وتعانوا تلك الدهشة، لكن فقط شرط ان تقفوا طويلا أمام أية كلمة أو عبارة أو آية في القرآن تشد انتباهكم ، وتطرح عليكم ألف سؤال وسؤال.. ويقيناً ستقشعر جلودكم يومها.. ستدهشون، وتهتزون، وتنتشون، وتحزنون وتفرحون.. وستقولون لو لم يكن في القرآن الاّ هذا لكفى به كتاباً من الله!!

إنه ﴿يعلم السّر في السماوات والارض﴾....

أيّ سرّ كبير هذا يقوم عليه بنيان السماوات والارض؟.

أيّ سّر شامل رهيب هذا الذي يتخفى وراء كتل الكون الرهيبة الهائلة، وذراته الصغيرة المتناهية على السواء؟

أيّ سرّ عظيم هذا ، يضبط وينظم ويوجه ويحرك خلق الله جميعا في أبعد الآفاق وأقربها؟

أيّ سّر عظيم هذا الذي يتفجر به وهج الشمس المحرق، ويتساقط به شلال الضوء القمري الحالم، وتتنادى - به - وتتهامس، وتومض، نجوم السماء؟..

بل أيّ سّر هذا الذي - به - نتنفس، ونأكل، ونمشي، ونفكر، وتخفق قلوبنا، وتهتز ارواحنا؟!

ثم أيّ سّر هذا الذي به - وبه وحده - نضحك ونبكي، ونفرح ونحزن، ونحيا ونموت؟

هل نقول – متجاوزين – انه سر التكوين الرياضي والطبيعي للكون.. والبيولوجي والفسلجي للحيـــــــاة.. والنفسي – الميتافيزيقي للروح؟ ومن ثم فإن الله الذي يعلم هذا « السّر »، الله الذي هو صانع هذا « السّر »، قديرٌ في أية لحظة، وبقوة الكلمة المريدة، على أن « يفعل » ما يشاء تحليلاً وتركيباً.. تثبيتاً وتغييراً، في اية من هذه المساحات الكبيرة الثلاث : الطبيعة والحياة.. والروح.

وهلاّ نكون ساذجين، حمقى، أغبياء، بمجرد أن نتساءل دهشين : كيف سيبعثنا الله من قبورنا، وكيف سيحاسبنا ويسوقنا الى جنة أو إلى نار؟

اذا جاز لنا ان ننكر على رجل كهايزنبرغ أو أينشتاين أن يفجّر الذرة التافهة ويدمّر بها اعظم مدن الأرض، لأنه عرف « سرها ».. وإذا جاز للنملة أو الدودة أو الصرصار ان ترفض مقدرة رجل مثل « مندل » على أن يتحكم في الوانها وخصائصها لأنه عرف « سرّ » معطياتها الوراثية.. جاز لنا أن نتساءل بنفس السذاجة، بنفس الحمق والغباء : كيف سيبعثنا الله من قبورنا ، وكيف سيحاسبنا ويسوقنا الى جنة او الى نار؟ واذا كانت قدرة الله تعالى لا تلمس ولا ترى فإن الطاقة الدماغية لأولئك العلماء لا تلمس هي الاخرى ولا ترى...

أما المؤمنون، اولئك الذين يملكون القدرة على النفاذ، والإحاطة، والفهم العميق، أولئك الذين تخفق افئدتهم الذكية دوما.. وعلى وهج خفقانها يدركون حكمة وجودهم في العـالم.. فإنهم سيقولون إنـه ﴿يعـلم السّر في السماوات والارض﴾.

وأما الكافرون، اولئك الذين لا يملكون أيّاً من هذه القدرات، ولم تخفق افئدتهم يوما، اولئك الذين غدوا، لهذا وذاك، كالأنعام.. فإنهم سوف لن يروا أبعد من مواطن أقدامهم.. وبدون الضوء النفاذ الذي ينبعث من جمرات الأفئدة الذكية.. فسيظلون يتخبطون في الظلمات.. ولن يدركوا حكمة وجودهم وامتداد مصيرهم صوب الخلود.. إن اكثر «التصّورات» بالنسبة اليهم سهولة، واقل «المدركات» تعقيدا، هي التي تجذبهم الى نوع من الاعتقاد الساذج البليد.. إننا إذا ما متنا وغدونا عظاماً ورفاتاً، فإنه ليس ثمة قوة في الكون قادرة على ان تنتشلنا من الحفر الضيقة، والعفن والدود، وتبعث فينا الحياة..

ونعود مرة اخرى الى العبارة القرآنية المعجزة ﴿الذي يعلم السرّ في السماوات والارض﴾.. واذا ما اتيح لكم، عبر لحظات الصفاء النفسي، والهزة الروحية، والنفاذ الذهني، ان تتأملوا

ابعد النجوم في مساراتها واحجامها التي لا يطالها الخيال، والتي ظلت تمارس دورها ضبطا وحركة ونظاما، ملايين الملايين من السنين الضوئية.. واذا ما اتيح لكم - أيضاً - عبر اللحظات نفسها، ان ترقبوا قلب بني آدم، هذه المضغة الصغيرة من اللحم، وهو يدق بانتظام وطمأنينة عشرين أو ثلاثين أو اربعين ألف يوم، مما لا تبلغ عشر معشاره أدق وأعظم ساعة في العالم.. واذا ما أُتيح لكم - كذلك - عبر اللحظات نفسها ان تلحظوا النبتة الصغيرة، وهي تشق قشرة الارض لكي تستوي، بعد قليل، على سوقها، خضراء، مرحة، مطمئنة، معطاء..

اذا ما أتيح لكم هذا وذاك .. ومئات غيرها من مواقف الدهشة والاعجاب والنفاذ في صميم خلق الله وإبداعه وجماله.. قدرتم على أن تقفوا أمام كلمات الله وجلين.. مقشعري الجلود...

لأنه جلّ جلاله ﴿يعلم السر في السماوات والارض﴾!!

واحد + واحد = اثنان!!

يؤكد القرآن الكريم على أن الذين يلتزمون الصراط المستقيم في مسيرتهم عبر الحياة الدنيا، انما يفعلون ذلك بارادة الله سبحانه. وان الذين يختارون الظلمات يصدرون في ذلك عن ارادة الله..

وللوهلة الاولى يبدو أن الإنسان مغبون. وانه مقدر عليه سلفاً أن يجتاز هذا الطريق أو ذاك. الاّ ان المتمعّن في معاني الآيات وارتباطاتها عبر القرآن كله سيجد نفسه أمام حقيقة واضحة كنور الشمس : ان الذي يجهد نفسه بحثاً عن حقيقة التوحيد في الكون، ويجاهد من أجل الاقتناع الذاتي والايمان البصير، سيصل هدفه بمعونة الله وقدره، والذي يتنكر لها رغم دلائلها التي لا تحصى في صفحة الكون، مستعيضا عنها بما هو اكثر سهولة وارخص مطلبا، سيضل الطريق بارادة الله وقدره!!

ذلك ان الهدى والضلال الالهيان انما ينبثقان عن أسبابهما الطبيعية اعتماداً على النواميس الإلهية التي رتبت المسببات

على الأسباب، وما دام الانسان يمتلك العقل الذي يميز به بين الخير والشر، والارادة التي(ينفذ) بها حركته عبر هذا الدرب أو ذاك، فإن(مسؤوليته) تقع على عاتقه ابتداء من مرحلتي التصميم والتنفيذ على السواء.. ويجيء قدر الله ايصالاً الى النهايات التي تنسجم تماما مع البدايات حيث يعرف الله سبحانه، بعلمه الذي وسع كل شيء، الطينة التي اختار الانسان أن يجبل منها وجوده ومصيره ﴿ونفسٍ وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها﴾. ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامةَ كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾...

إن ارادات البشرية ونشاطاتها العقلية، انما تدور - وهي تعمل - في الفلك الأكبر للارادة الالهية، وتكون - بدورها - (سببا) في تنظيمها الكوني للمصير. وثمة فرق أساس بين (الأشياء) التي تنساق الى مصائرها دون (تعقّل) منها او(ارادة) وبين بني آدم وهم يسهمون بأنفسهم في اختيار مصائرهم فيكونون مؤمنين أو كفاراً﴿إنا هديناه السبيل اما شاكراً وإما كفورا﴾.. وكي لا يقع احد في خطأ الاعتقاد بأن الاختيار الأول لأي انسان هو الذي سيدمغ حياته ووجوده ويأسره بمصير واحد لا يستطيع

الفكاك منه مهما جهد، يؤكد القرآن - مراراً - على ان بمقدور الانسان في أية لحظة من عمره الطويل ان يعدل من اختياراته السابقة لكي يمارس اختياراًجديداً.. وما أن تتوفر لديه النية القاطعة في« التوبة »أو« الارتداد »حتى يجيء القدر الالهي لكي يسوق التائبين الى جنة الغفران ويسعى بالمرتدين الى جحيم المروق والعصيان!! إن اي انسان (تائب) بمجرد احساسه المؤمن العميق بأن الله معه، يرعاه ويسدّد خطاه، سيجد في نفسه قدرة خارقة على الصعود السريع صوب القمة.. وما اكثر الشهداء والقديسين الذين انطلقوا من أوحال الخطيئة والعفن الى آفاق النور والصفاء!!

إنما الأعمال بالنيّات...

إن كثيراً من (مواقف) الانسان الخارجية يمكن أن يكون سلاحا ذا حدين، يحمل في الوقت نفسه معنيين متناقضين، أو تفسيرين على طرفي نقيض.. وهذه الحقيقة تكاد تكون بديهة من بداهات العلاقات الاجتماعية، وسبباً من اكبر الاسباب التي تولد المشاكل وتقود الى المتاعب والمنغصات.. وأي منا لم تمارس معه هذه الثنائية في تفسير مواقفه تفسيراً متناقضا؟

الكاتب الذي يغزر إنتاجه يقولون عنه أنه دؤوب مثابر وانه يتفجر ثقافة وعلما.. ويقول آخرون إنه لا يعدو أن يكون تاجر فكر يسعى لأنْ يربح بالفكر ما يحققه غيره باليد أو اللسان أو المال، وانّه مهرّج يرغب في أن يرى كتبه تغمر الاسواق، (نرجسيّ) يريد أن يشير اليه الناس بالبنان ويتحدثوا عنه بالاكبار والاجلال.. والكاتب الذي يشحّ إنتاجه يقولون عنه إنه باحث علمي مركز، وانه يسعى لخدمة الحقيقة بهدوء، بعيداً عن صخب الشهرة وضجيج النقد

والاحاديث.. ويقول آخرون أنه لا يملك من الثقافة ما يمكنه من إنتاج متواصل غزير، وانه يغطي عجزه هذا بالتحدث في المجالس دوما عن أولئك الجنود المجهولين من العلماء الحقيقيين، الذين يعملون بصمت، والذين يعكفون طيلة سنوات عديدة من عمرهم القصير على كتابة بحث واحد، وأحياناً تفنى أعمارهم دون أن يشهد السوق لهم كتاباً واحداً!!

وليست إلاّ قلة قليلة من الناس تسعى، وسط هذه الفوضى في الاحكام، وهذه التفاسير، المتناقضة، الى أن تستخدم المعايير الموضوعية الدقيقة، للحكم على هؤلاء الرجال حكما يقوم على دراسة واستقصاء كل ما كتبوه، وعلى التوغل - كذلك - في فهم حياتهم الشخصية ذات التأثير المتبادل مع معطياتهم، من أجل أن يجيء حكمهم عادلاً، متوازنا، موضوعيا (قدر الامكان)!!

والمدرّس الذي ترتفع بين طلابه نسب النجاح والمعدلات العالية يقولون عنه إنه مدرس قدير ناجح، وان ثقافته الواسعة وأسلوبه المحبّب في إيصال المادة إلى أذهان الطلاب، وتفننه في أصول التدريس هو الذي قاد الى هذه النتائج الطيبة...

ويقول آخرون إنه فارغ جاهل، متسيّب لا يشعر بمسؤوليته ولا يحمل ضميراً، وهو إنما يغطي عجزه في المادة والتدريس بهذا السخاء في الدرجات، فهي على كل حال لا تخرج من جيبه ولا تفقده شيئاً، على العكس، ربما تزيده محبة لدى الطلاب وتقديراً لدى المديرين والرؤساء....

والمدرس الذي تقل نسب النجاح بين طلابه وتنخفض المعدلات الجيدة، يقولون عنه إنه جاد صارم، لا يمنح الدرجات جزافاً، وهو مستعد لأن يضحي بمحبة الطلاب له وتقدير الإدارة لجهوده، على أن يفرط بكرامة العلم وموازينه العادلة الدقيقة بشيء...

ويقول آخرون إنه عاجز، فاشل، لا يملك علماً ولا أسلوباً يمكنه من توضيح المادة للطلاب، ومن ثم يبقى هؤلاء دون المستوى المطلوب وتجيء نتائجهم محملة بالأصفار المرصوفة الى اليسار!!

وحتى العبادة والمتعبدين. لم ينجوا من هذه الثنائية وهذا التناقض في الحكم الاجتماعي، فالذي يكثر من الذهاب إلى المساجد وتلاوة القرآن والتصدّق

على الفقراء، ربما قيل عنه إنه من المحسنين وربما أنزلوه إلى دركات الرياء والنفاق... والذي لا يظهر من عبادته شيئاً ربما رفعوه الى مرتبة الأولياء والصالحين، وربما نزلوا به إلى ظلمات الزندقة والمروق!!..

ترى كم من المواقف والممارسات الاجتماعية لا تحتمل هذا الحكم المزدوج وهذا التناقض الذي ينزل على نفوس المحكوم عليهم - احيانا - كالسكين؟

حدثني أحدهم قال : عشر سنوات وأنا أحبس نفسي بين الحين والحين، على مضض، واستهلك زهرة أيامي بالبحث والتنقيب من أجل إخراج عدد من الابحاث في الأدب والتاريخ والاجتماع، ولما لم أكن أملك يومذاك ما يعينني على السفر لنشر ابحاثي تلك، فقد تكدست لديّ، وما أن اتيحت لي الظروف المناسبة حتى دفعت بها مرة واحدة لعدد من دور النشر، فخرج تباعا، وعلى فترات متقاربة خمسة أوستة منها.. فما كان من الناس، وفي مقدمتهم الأقرباء والاصدقاء،الاّ أن قالوا أنه يكتب على عجل، وان أبحاثه لا تعدو أن تكون أعمالا صحافية، وانها تخلو من فكر حقيقي، وان عليه اذا ما اراد أن يكون باحثا جادا أن يتوقف عن هذه المتاجرة (بالجملة) ويعكف على تأليف بحث

(علمي) (جاد) سنوات وسنوات.. وقال آخرون اني أحب الشهرة وأهوى أن تسلط الاضواء علي، واني - بالمقاييس الايمانية - لا أبتغي وجه الله والإسلام وانما وجه ذاتي ومصلحتي..

توقّف صديقي ريثما يلتقط أنفاسه، ثم استطرد قائلاً: وقلة من الناس هي التي قرأت أعمالي كلها فقدَّرتها حق قدرها وأصدرت بشأنها الحكم الموضوعي العادل الذي يشير - بانصاف - الى مواضع الخطأ والصواب.

ولكن - أجبته معزّياً - من خلال هذا الضياع في المواقف، وهذه الفوضى في أحكام الناس، وهذا التناقض في تقييمهم للممارسات المختلفة، تنزل كلمات الله وأحاديث رسوله الكريم برداً وسلاماً على قلوب المتعبين، بما تطرحانه من مقاييس دقيقة عادلة إزاء الجهد البشري: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾. ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم،

إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾... «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»... وصدق الله وصدق رسوله!!

كتاب ليس كالكتب!!

هنالك آيات قرآنية تقدم بكلمات موجزة، وأسلوب معجز في التعبير، « مواقف » أساسية في الكون والحياة، يبلغ من قوتها وعمقها وامتدادها وتماسكها، ما تجعل الانسان معها يقف معجباً دهشاً، مأخوذاً، بهذا التركيز الذي يمنحنا - بلمسات فحسب - أشد المواقف خطورة وحسماً.. وتقوده، من ثم إلى أعمق درجات الإيمان الواعي البصير، ليس في أن هذا الكتاب لا يمكن أن يجيء إلا من عند الله فحسب، بل إلى التسليم المطمئن الكامل لمعطيات دين عظيم هذا كتابه وتلك مواقفه الكبرى!!

إن اياً من هذه المواقف يمكن أن تكون وحدها « قرآناً » يقود الناس إلى هذا الدين، فما أشد ما تجيء منسجمة مع معطيات الفطرة البشرية، و مع بداهات العقل والمنطق، مع طبيعة الوجود البشري والكوني على السواء، ونستطيع نحن بمجرد أن نضع إزاءها نقائضها المقابلة، التي مارستها الدعوات الوضعية النسبية المتأرجحة الخاطئة، أن نرى مدى توازنها

وانسجامها مع بنية الانسان والعالم والكون، وأن ندرك في الوقت نفسه، ما جرته المبادىء الوضعية على الناس، عبر قرون الارتجال الطويلة، من مآسٍ وقلق وتشتت واضطراب، يستقطبها جميعاً موقف خطير واحد، هو «التنافر» مع سنن الحياة والكون، والاصطدام بها والتقاتل معها...

ترى كم كلف هذا الوضع المضاد، غير الطبيعي، من جهد وعناء ونكدٍ وشقاء لا تزال البشرية حتى الآن ترزح في أعبائه المتراكمة؟

يستطيع أي واحد منا أن يتمعن في هذا الموقف القرآني من خلال هذه الآيات:﴿أيحسب الإنسان أن يُترَك سدى؟﴾.... ﴿وان ليس للإنسان الاّ ما سعى. وان سعيه سوف يرى. ثم يجزاهالجزاء الأوفى﴾....ويقابله بنقيضه من العبث واللامعقول، وانعدام الجدوى وضياع الجهد البشري، وغبن الانسان الذي يقف وحيداً أعزل في كون لا يأبه له.... والتي تغطي مساحات واسعة من الفكر البشري وبخاصة في عصرنا الراهن هذا.... عصر العبث واللامعقول.... لكي يدرك أصالة الموقف القرآني وعمقه وشموله.... ويرى بوضوح الموازين العادلة التي يقيس بها هذا الدين معطيات الوجود البشري في العالم...

ويستطيع أي واحد منا ان يقرأ ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ لكي يزداد وعياً بهذه «الحقيقة» وإدراكاً لأبعاد هذا الموقف، حيث تبدو الحياة الإنسانية من خلاله تجربة عمل وإبداع وحيث يغدو الإنسان مشروع نموّ دائم صوب الأكمل والأحسن، وحيث تتحدّد الشروط الأساسية التي تجعل الجهد البشري إيجابياً صاعداً على خط هادف: الإيمان.. الحق.. الصبر..

ونستطيع - كذلك - أن نقرأ هذه الآيات ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه، من لدنا إن كنا فاعلين﴾، ونقابلها بنقيضها في الفكر اليوناني الكلاسيكي الذي امتدت مؤثراته حتى عصرنا الراهن هذا.. النقيض الذي يرى الحياة البشرية في جملتها لعبة بيد القوى الميتافيزيقية اللاهية ويرى الإنسان دمية لا إرادة لها، تتحرك وفق أهواء الآلهة القابعة هناك.... ويرى المصير وقد تحول إلى أحجية تتقطع أنفاس الناس دون حلّ رموزها..

ونستطيع بعد هذا وذاك أن نتأمل هذا الموقف الذي تطرحه الآية التي تهزّ الإنسان رغماً عنه:﴿وما قدروا الله حق

قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه..﴾ ويقابلها - من جهة - بمعطيات العلم التي تحدثنا عن حجم هذا الكون الرهيب الذي يسقط الخيال دون بلوغ عشر معشار أبعاده المكانية الهائلة، وكتله الصماء الفخمة التي يزيد حجم بعضها ملايين المرات عن حجم الشمس... ويقابلها من جهة أخرى بالموقف البشري الذي كثيراً ما يتميز بالغرور والانتفاخ والتعاظم، والاعتقاد بأنه لا شيء يقف في طريق الإنسان، ليصدّه عن بلوغ أهدافه وأنه لا توجد قوة في الكون تقف قبالة أهدافه ومطامحه وأنه بغزوه للفضاء واجتيازه عتبات الكون الأولى، سيواصل طريقه صعداً وسيكتشف، أو قد اكتشف كما قال أحد رواد الفضاء السوفييت، أنه لا اله هناك، وأن ليس إلا الإنسان وحده في الكون.. لكي ندرك بعد هذا كله كيف يضعنا القرآن الكريم من خلال موقفه هذا، على أرضيتنا الحقيقية، ويدفعنا لأداء مهمتنا دون زيف أو غرور أو مبالغة أو تضخم مرضي في التصور، يحجب عنا الرؤية الحقيقية والإيمان المدرك، بأن وراء هذا الكون المنظم المنسّق المتقن، قدرة إلهية لا تحد، سريعة نافذة، أوجدته في ستة أيام، وهي قديرة على لمه ثانية وإعادة طيه بيد الله مرة أخرى.

وعشرات، بل مئات، من هذه المواقف القرآنية الأساسية،

يمكن أن نقف أمام أي منها على انفراد لكي ما تلبث أن تفرض على وعينا وإدراكنا أننا إزاء كتاب ليس كالكتب، وإزاء دين ليس كالمذاهب والأديان.. فكيف بنا إذا وقفنا أمامها في تناسقها وتكاملها وارتباطاتها المعجزة الشاملة،كيف يكون المردود؟!

أفرّ من قدر الله إلى قدر الله!!

عندما فهم المسلمون الأوائل «القدر» على حقيقته العميقة أعطاهم قوة «خارجية» هائلة على الاندفاع «التاريخي»، ومنحهم - في الوقت نفسه - قدرة «داخلية» عظيمة على التوحد النفسي... وبهذا وذاك صنعوا الكثير المدهش، وقدموا للعالم صيغة عمل ذاتي وجماعي لا نزال نطمح إلى تحقيقها حتى الآن في قارات الدنيا الست..

لقد صنع القدر، وقد أدركه المسلمون على حقيقته: الإنسان المتوحد الفعّال، والمجتمع الحركي المجاهد... وهذا هو سرّ الأخلاق العظيمة والإنجاز الكبير لفترة تألقنا التاريخي.. فترة الإيمان.. والالتزام.. والذكاء!

ليس القدر، وفق مفهومهم العميق الذي أتاهم به كتاب الله، تصادم إرادات متضادة، ولكنه تساوق هذه الإرادات..

وليس القدر غشماً وقهراً كونياً لحشد من المخلوقات التافهة المستضعفة وسوقها إلى حتوفها.. ولكنه قوة لانهائية، عادلة،

تمتد إلى بني آدم في ساعات تيههم.. وحيرتهم،لكي تدفعهم إلى أهدافهم السعيدة التي ما كان بمقدورهم الذهاب إليها منفردين..

وليس القدر ضربة مفاجئة تجيء على حين غفلة لكي تفتت الانسان وتمزقه شر ممزق.. ولكنه إضاءة مكثفة تنقدح بين الحين والآخر في جنبات النفس البشرية لكي تمنحها المعرفة والرؤية والقدرة على التوحد والانسجام.

وليس القدر حظاً أعمى، ولعبة مجهولة النتيجة، وصدفة عمياء...

ولكنه معادلة رياضية مركبة، من الدرجة الرابعة، تجيء نتائجها دائماً صادقة، صحيحة، ولكن الذين يقدرون على حلها، وعلى تبيُّن تكاملها المعقد المدهش، قلة من الناس في كل زمان ومكان..

إلا أن أجيالنا الأولى كانت جميعاً قديرة على اجتياز هذا التعقيد، وحلّ رموز هذه المعادلة الكونية الكبيرة..

من أجل هذا وجد الانسان المسلم نفسه يومذاك، وهو يتلقى الضوء والدفع أيضاً، لتحقيق توحده وتناغمه وانسجامه عن طريق مزيد من الجهاد والعطاء.. على درب الله

الذي لا يغبن الناس مثقال ذرة من خيرٍ أو شرّ..

ومن أجل هذا أيضاً وجد المجتمع المسلم نفسه ينساح مجاهداً في مشارق الأرض ومغاربها، وهو يحمل بين جنبيه اعتقاداً عظيماً بأنه ينفذ مهمة كونية عادلة ويصنع عالماً منطقياً باهراً..

سواء رأى بأم عينيه نتائج هذه المهمة، وجمال هذا العالم، أم سقط في الطريق..

إن المؤمن يموت يوم يموت، في ساحة الحرب أم على فراشه، لأنه مرسوم في خارطة الله أنه ميّت هناك، فعلام يتردد أو يخاف؟

إن المؤمن من خلال تصوره هذا يجد في القدر زخماً عظيماً للانطلاق، وليس كما يريد البلهاء أو الخبثاء أن يصوّروه أو يتصوروه: سبباً من أسباب العجز والتواكل والقعود..

والمؤمن يخفق أو يفوز، في هذا الميدان أو ذاك، لأنه مكتوب في علم الله أنه في الميدان ذاك ناجح أو خسران.. فعلام يحزن أو يقلق أو يخاف؟

إن النجاح سوف يدفعه إلى إنجازات أخرى، والإخفاق لن يصدّه عن القيام ثانية والمضي على الطريق..

وسواء كانت تجربة الفوز والإخفاق على مستوى الواقع

الخارجي أم الأخلاقي، فالأمر سواء..

إننا من خلال نسبيتنا وعجزنا وقصورنا ، ومن خلال شعورنا المتورم بقدراتنا في الوقت نفسه نتصور ، مخطئين ، أن إراداتنا هي البدء والمنتهى ، وأنها تمارس عملها مستقلة استقلالاً تاماً ..

ومن ثم لا نستطيع أن ندرك كثيراً من المسائل، وعلى رأسها حقيقة أن أعمالنا كلها مرسومة بمعطياتها ونتائجها، بجزئياتها وتفاصيلها، على خارطة أوسع بكثير من خرائطنا الخاصة وفي دائرة أكبر بكثير من دوائرنا المحدودة.... ونتصور أننا مغبونون إذ قدّر علينا هذا دونما اختيار منّا ولا إرادة..

إن كل مرشح لمنصب الرئاسة، أو لأي منصب آخر، يتمنى لو يحظى بهدفه... لو يملك الحرية لكسب معظم الأصوات التي توصله إلى أمنيته... لكنه يعرف أن حرية من هذا النوع غير موجودة بالمرة، وأن نجاحه أو إخفاقه يتوقف على عشرات العوامل والمواقف والاختيارات المعقدة المتشابكة، ومن خلال هذا النسيج المتداخل يتحرك الانسان ويمارس حريته بالقدر الذي أتيح له... والرجل الذي يرفض التصويت له ليس بمقدور قوة في الأرض أن تجعله يغير موقفه

هـذا... وإذا مـا حـدث وأن أشارت الاستفتـاءات والاختبـارات والإحصائيـات العلمية التقنية الدقيقة إلى احتمال إخفاقه، فإنه مكتوب عليه أن يجابه الفشل قبل أن يصبح أمراً واقعاً، رغم المدى الواسع لحريته في السعي من أجل الفوز بأية طريقة ووفق أي أسلوب شريف!

والحق.. أن إرادة أي واحد منا إنما تمارس حريتها الكاملة في حدود دائرتنا الانسانية فحسب، وإلاّ لم يكن هنالك عدل أساساً، لكننا إذ نتحرك في دوائر أكبر بكثير من دائرة حياتنا الخارجية، وتشتبك إرادتنا مع إرادات شتى عبر تلك الدوائر التي تتجاوز الفرد والمجتمع والطبيعة والعالم.. إلى ساحة الكون كله، وتغادر الواقع المنظور إلى الغيب المخفي، واللحظـة الراهنة إلى الخلود، والجزئي المحدود إلى الكلي اللانهائي.. إذ يحدث هذا كله فلنا أن نتوقف عن السعي لحلّ هذه المعادلة، وقد ازدادت تعقيداً وتركيباً بالطرائق الحسابية السهلة المبسَّطة لأننا سوف لن نصل إلى نتيجة آنذاك..

أكثر من هذا، إننا نمارس خطأ أشنع بكثير عندما نَنسب إراداتنا إلى إرادة خالقنا ونحاول أن نقيس ونشبّه ونجمع ونطرح.. وكما أنه يستحيل في بداهات الحساب أن نجمع ثلاث برتقالات إلى تفاحتين ونقول: خمسة.. كذلك في

عالم الفكر وبداهاته، يغدو من المستحيل إجراء أية مقارنة بين إرادة الانسان وإرادة خالق الإنسان..

إن هنالك تنظيماً كونياً للمصير، أكبر بكثير من مصائرنا، وأشد تعقيداً، وأبعد عن الرؤى والتحليلات المباشرة... إن المسألة كثيراً ما تندّ عن مقدرة الفكر على التحليل... والمؤمن العميق هو الذي يحوّل المسألة إلى دائرة القناعة الوجدانية، وهناك سيعود ثانية، وقد انقدح ذكاء الفؤاد، بفهم أكبر للعلاقة بين القدر والحرية، بين كلمة الله وإرادة الإنسان.

عندما تدهس سيارة رجلاً ما، فإن الذي قتله ليس تخبطه في السير فحسب، ولكنها تعقيدات الحضارة كلها، ابتداء باختراع السيارة وانتهاء بكثافة السكان ونظام المرور... إن الرجل كان بمقدوره أن ينجو لو سار بنفس الطريقة الهوجاء، في نفس المكان، قبل مائة عام.. لكنه الآن كان محتماً أن يموت.. إن هنالك أكثر من طريقة واحدة تسهم جميعاً في صياغة مصائرنا الصغيرة والكبيرة على السواء.. وهي جميعاً محصورة سلفاً في علم الله..

هذا على مستوى الحياة في مدينة صغيرة، فحسب، فكيف على مستوى الارتباطات في مسرح الكون الكبير؟

لقد قالها عمر بن الخطاب (ر ض)، عندما غادر الشام الموبوء بالطاعون عائداً إلى الحجاز: «افرّ من قدر الله إلى قدر الله»..

وذلك هو الفهم الأعمق لموقف الإنسان في الكون ما دامت حياته ووجوده ومصيره، المعقدة المتشابكة، ذات الأطراف العديدة، تخضع في نهاية الأمر لإرادة فوقية شاملة واحدة هي إرادة الله!!

الكلمة.. عندما تصنع التاريخ

«الكلمة» التي تفعل فعلها في تحديد مسار التاريخ وصياغة مصائره هي التي تنفخ روح «الحركة» في ضمائر الناس وعقولهم وافئدتهم، فتبعثهم خلقاً جديداً لكي يمارسوا مهمتهم في صنع التاريخ وحفر مجاريه الكبيرة عبر الزمان والمكان... هي التي تنساب الى خلاياهم فتغذيها وتبنيها واحدة واحدة... هي التي تتشرّبها دماؤهم وتتمثلها أعصابهم، فتحيل كل فردٍ منهم إلى «الكلمة» ذاتها وهي تتحرك وتفعل وتهدم وتبني وتنسجم وتثور..

وهكذا تنزلت الكلمة القرآنية على الجيل الأول من دعاة الإسلام، أولئك الذين صنعوا تاريخنا وتسلموا القيادة، وغيروا وجهة المسيرة البشرية من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن العبودية للعباد إلى عبودية الله وحده..

وهكذا غدا كل واحدٍ منهم «قرآناً» يمشي على الأرض ويؤدي دوره العظيم في تعبيد «الصراط المستقيم» الذي يكفل

للإنسان العدل والحرية والخلود..

لقد كان على رجال الفكر، على طول التاريخ، أن يتخذوا أحد موقفين:

إما أن ينفخوا روحهم في كلماتهم، فيحيلوها أدواتٍ حيّة فاعلة في حركة الأمم والجماعات والشعوب... ولن يتأتى هذا، ببساطة أو بالمجان.. ولكن بأن يكون «الايمان الكبير» قد تغلغل في كيان المفكر واستقر في أعماق الأعماق، وملك عليه حسّه وفكْره وروحه.... وأصبح بالنسبة إليه بمثابة الماء والغذاء .....

وإما أن يرسموا كلماتهم، ويطلقوها، كما يكتب عالم الرياضيات الأرقام الميّتة الصمّاء، ويرصفها إلى بعضها، باردة، متيبسة، ميّتة، لا تقدر على صنع شيء، ولا تسهم في مجريات الفعل البشري الذي يصنع التاريخ.. وهذه الكلمات الساكنة تجيء يوم تجيء، لأن المفكر في حقيقة الأمر يفتقد الإيمان الكبير.. الإيمان بقضية ما هي بمثابة الينبوع الذي تتفجر عنه الكلمات الحيّة.

إن «الكلمة» طالما جرّدت من قدرتها على «التحريك» و«البناء» و«التغيير» طالما لفظتها الحياة الصاخبة، المتمخضة، المتحركة، ونفتها من قاموسها الحيّ الذي لا يعرف

السكون، إلى بطون الكتب الميتة الصفراء التي يكفنها الغبار، وينخر فيها السوس، ويحيطها صمت ميّت كذلك الذي يرين على القبور في الأماكن النائية!!

فحذار حذار.. أيها المسلمون أن تؤول كلماتكم الى هذا المصير الذي آلت اليه كلمات أرسطو وأفلاطون، وابن سينا والفارابي، وهيغل وسبنسر، وديوي وراسل.. وهذا قرآنكم العظيم يعلمكم كيف تكون «الكلمة» حركة دائمة من أجل شرف الإنسان، وكرامته، وتفرّده على العالمين!!

البداهة المؤمنة.. ذلك المعلم الحاذق

إن كثيراً من ممارسات «المسلم» ومواقفه اليومية تعتمد - في المستوى الشرعي - ما يمكن تسميته «بالبداهة الدينية»، حيث يقيس الأمور على ضوئها، ويقدّر - في لحظات - موقع التجربة من مدرّج الإسلام المعروف بالحلال والحرام والمندوب والمكروه والمباح، ومن ثم يحدد موقفه منها تقبلاً أو رفضاً، بعداً أو قرباً، اطمئناناً وثقة أو توجساً وشكاً، دونما رجوع فقهي الى مصادر المسألة في مستواها الشرعي.. وهذا معنى الحديث الشريف: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»....

ولكن، ترى.. بعد كم من المران، والتديّن والتعبد، والاندماج في قيم الاسلام وجوهره وروحه، يصل المسلم هذه المرحلة من الحكم «الآني» الذي يعتمد بداهات القلب المؤمن، و«حماية» الفكر الذي يتقي الله!

إن لكل ممارسة، أو موقف، أو قضية، في حياتنا

الدنيا هذه أكثر من وجه وأكثر من امتداد، بعضها يغور في أعماق النفس لكي يلامس النيّة التي تكمن وراء الأقوال والأفعال، والتي لا يكشف غيبها إلا الله، وبعضها يمتد إلى صفحة العالم الخارجي لكي يبرز للأنظار، ولكن من زوايا مختلفة تجعل الرؤية ليست واحدة ولا متجانسة في أغلب الأحيان.

وليس بميسور أكثر التشريعات تفصيلاً أن تحيط بكل هذه الامتدادات، وليس من المنطق - كذلك - أن يحمل التشريع نفسه بآلاف من الجزئيات التي لا تكف عن التمخض والتدافع..

وليس - إذن - غير «البداهة الدينية» أو الإيمانية، تلك التي يكونها الإسلام في نفس المؤمن، في أعماق قلبه وطوايا ذهنه، والتي يشدّها الى قيم الإيمان العميقة والتقوى الدائمة والإدراك المسؤول... ليس غير البداهة الدينية حكماً في الموضوع..

إن «اللعب» - على سبيل المثال - هذا الذي يوليه رجال التربية أهمية فائقة في شتى مراحل النمو، يمكن أن يمتد - على المستوى الشرعي - إلى أكثر من جهة، ويتلبّس أكثر من قناع، ويصل إلى أكثر من غاية،

وبدون النية المخلصة المسؤولة، وبدون البداهة الدينية التي تعرف ما تأخذ وما ترفض، فإن المسلم يمكن أن يضيع وسط عشرات «التبريرات» وهو يمارس من اللعب أوجهاً لم يتكلم عنها «الشرع» مباشرة، إلا أنها تقرب أو تبعد، بدرجات متفاوتة، عما يكمن وراء التشريع: الروح والجوهر والشخصية...

إن أية لعبة - على سبيل المثال - يمكن أن تروّح عن القلب، وتنشر المحبة، ويمكن أن ترهق الأعصاب وتستنزف الوقت والطاقة، وتنشر العداوة والبغضاء... قد تمرّن على عمل إيجابي وقد تخلق عادات سيئة.. قد تنشر تقاليد أخلاقية طيبة وقد تقود الى تقليد وثني مرفوض..

وما يقال عن اللعب، بل عن لعبة ما، تحمل أكثر من وجه، يمكن أن يقال عن أية ممارسة في حياتنا الدنيا هذه..

والمسلم المسلم هو الذي «يدرّب» بداهته الدينية ويصقلها دوماً، لكي تكون كالسكين تقطع بسرعة، دونما أي تأخير، ومن ورائها «نية» لا ترجو إلا الله، ولا تنظر أو تميل لأحد غيره.. سبحانه!!

الحوار الخلاق

في سورة «سبأ» نقرأ هذه الآيات:

﴿ولقد آتينا داوود منا فضلاً، يا جبالُ أَوِّبي معه، والطير، وأَلَنّا له الحديد. أنِ اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر، وأسَلْنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير. يعملون له ما يشاءُ من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور. فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خرَّ تبيّنَت الجن أَنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

نقرأها فتثير فينا حشداً من الصور والتأملات والأفكار.... إنها تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الانسان الكامل، والطبيعة، وقوى ما وراء الطبيعة، في حوارها الخلاق مع الله سبحانه أخذاً وعطاء.. إن طاقات

الكون كله تنسجم ههنا وتتناغم وتعمل بتوافق رائع في خدمة الانسان الذي يتوجه إلى الله في أصغر فاعلياته وأكبرها حامداً شاكراً عابداً للمنعم الذي منحه هذا كله، لكي يقف في موقفه الصحيح الذي أنشئت الحياة على الأرض من أجله:﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلاّ ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.

والعبادة التي تطرحها هذه الآية العريضة ليست علاقة ثنائية سالبة بين الانسان والله، كما أنها ليست مجرد عطاء يشكر الإنسان به ما وهبه الله إياه في نفسه وفي العالم..

إنه حوار إيجابي، وجدل فعّال، وممارسة حضارية تسودها علائق الأخذ والعطاء..

إن هذه الآيات، التي هي أشبه بالسيمفونية التي تتناغم ألحانها وخفقاتها في وحدة صوتية باهرة، تجيء، لكي تعطينا صورة، من عشرات الصور التي يطرحها القرآن، عن طبيعة العلاقة بين الله والانسان، وعمّا تؤول اليه على نطاق النفس البشرية والعالم كله، حيث لا انفصال - في الإسلام - بين الانسان والعالم، ولا انقطاع بين عالمي الحضور والغياب، وحيث الارتباط الكلي الذي يضم الانسان إلى الطبيعة إلى ما ورائها، لكي تتحقق مشيئة الله في إعمار الأرض والتوجه

المسؤول صوب خالق الكون والحياة والانسان، وتنفيذ مسؤولية الخلافة بوعي وأمانة..

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله، المصطفين داوود وسليمان (ع) وقد سُخِّرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدّها جدار زماني أو حاجز مكاني، سُخِّرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الانسان المؤمن المسؤول: الجبال، الطير، الحديد، الريح، القطِر (النفط)، الجن.... في عدد مشار اليه من مساحات العمل الحضاري: صناعة وعمراناً وبناء وفنوناً..

وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط، تلك الإشارات الواضحة الى الحديد والوقود - اللذين قد تبين لنا في قرننا العشرين هذا - كم هما ضروريان وأساسيان للحضارة المعاصرة، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبّق..

ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد لداوود فحسب، ولكنه يعلمه كيف يليّنه، فبدون هذا لن يكون ثمة فائدة لهذا الخام الخطير...

ولن ننسى ههنا الاشارة إلى « الريح » التي تروح في شهر وتغدو بمثله، وقد تبين لنا من خلال الدراسات الجغرافية

والطبيعية كم هي عظيمة خطيرة طاقة الريح هذه في إعمار الأرض والحياة وازدهارهما أو في دمارهما وفنائهما على السواء!!

وقبل هذا أو ذاك تبدأ كلمات الله بتلك اللمسات الوجدانية المؤثرة التي علمنا القرآن إياها، متمثلة بهذا النداء الذي يضع الانسان في قلب الكون ويقيم بين الطرفين علاقة حياة وعطف ومحبة، تتجاوب وتتناغم على عين الله: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾!!

إن هذه الآيات - وغيرها كثير - تقدم لنا الردّ الإلهي الحاسم على القائلين بأن الأديان السماوية ما جاءت إلا لكي تقود المؤمنين إلى مواقع الانعزال والسلب والفرار، وتنفخ في وعيهم أن الدنيا «قنطرة» وأنّ عليهم أنْ يعبروها ولا يعمروها. ومن ثم يغدو «الدين» نقيضاً «للتحضر»، ويقف الإيمان بمواجهة الخلق والابتكار والإبداع، وتتحول العلاقة بين الانسان وخالقه إلى مسألة سكونية «ستاتيكية»... تاركة للمذاهب الوضعية أن تأخذ زمام الحركة «الديناميك» من أجل تطوير الحياة وترقيتها.

إن هذا التصوّر الخاطىء مرفوض بالكليّة، ومستبعد من أساسه، وأمامنا شاهد واحد من مئات الشواهد القرآنية على

هذا الرفض والاستبعاد لمواقف اتكالية مهزومة تسعى إلى أن تجعل الدين والتطوّر عدوين لدودين..

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن.. بل بالنبيّ، الذي يبلغ من فهمه لله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من قوى الكون المذخورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة، ويحشر لخدمته الريح والوقود والحديد والنار والماء... من أجل ماذا؟... من أجل أن يبني ويعمر ويتفنّن ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعداً على طريق الخلافة المسؤولة المؤمنة الواعية، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير. والقدرات المتاحة، عن التوجّه بالشكر للخلّاق العظيم مصدر القوة والطاقة والفاعلية، وعن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان.. وقليل هم أولئك الذين يظلون في مواقعهم هذه بأمانة كاملة.

ولكن الآيات القرآنية ما تلبث في ختام الصورة أن تقدّم – بأسلوبها التصويري الأخّاذ – حقيقة أخرى لا تقل أهمية لأنها تفعل فعلها الإيجابي في موازنة الوضع البشري كيلا ينحرف صوب المروق والكفر والعصيان...

إن الموت بانتظار الجميع، أنبياء كانوا أم أناساً عاديين، عمالقة كانوا أم أقزاماً، ملوكاً أم فقراء..

إنه نهاية المطاف لبني آدم جميعاً والسقطة التي لا بدّ منها للمرور إلى يوم الحساب.. وإن عليهم أن يتذكروا هذا، لأن الرجل النبيّ الذي سُخِّرت له طاقات الكون، ووضع النفط والحديد السائل بين يديه، وحشرت تحت قدميه النار والماء والرياح.. ينتهي به الأمر إلى الموت، لكي ما تلبث الديدان، أصغر الحشرات وأقذرها، أن تأكل منه...

ليس هذا فحسب، بل إن على الجان أيضاً، أولئك الذين يملكون قدرة أكبر بكثير من قدرات بني آدم، بعد إذ تحرروا من شدّ المادة وعوائق التراب، هؤلاء أيضاً عليهم أن يلزموا حدودهم ومواقعهم، وإلاّ تطغيهم القدرات التي منحهم الله إياها، فهنالك الحد الذي يعجزون عن تجاوزه، والتحدي الذي لا يقدرون على التصدي له.. وغيب الله واسع شامل بعيد لا يحصى مجرياته ومقاديره إلاّ الله.. وسرعان ما يتبين للجنّ في ختام المشهد العظيم ﴿أنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾!!

سورة الحديد.. يا لها من تسمية؟!

وفي سورة «الحديد» نقرأ هذه الآية:

﴿لقد أرسلنا رسُلَنا بالبينّات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناسُ بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس، وليعلمَ الله مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بالغيب، إنّ الله قوي عزيز﴾.

سورة الحديد.. يا لها من تسمية!!

هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض، من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟

هل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والإبداع والبناء التي جاء بها الاسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة، أنزلها الله لعباده.. وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخّضان دوماً عن حديد: «البأس الشديد» متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد

العسكري، و« المنافع » التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات بنائه ونشاطه « السلمّي »؟!

وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل الحرب والسلم، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في موازين القوى الدولية سلماً وحرباً؟!...

إن الدولة « المعاصرة » التي تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل، وتستطيع - أيضاً - أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها.

إننا هنا بإزاء الحلقة، أو المستوى الثالث،من مستويات المنهج القرآني في التعامل مع الطبيعة، تلك المستويات التي يعمل أولها في الإطار الفلسفي حيث التأمل العميق في الكون والعالم من أجل الوصول إلى الله، وإدراك قدرته الخلاّقة، وإحاطتــه الشاملــة، ويعمـل ثانيهـا وثالثهـا في الإطـار « العلمي »، إذ بينما يتجه أحدهما إلى حثّ الإنسان المسلم على دراسة الكون والعـالم للكشف عن القوانين التي تحكمهما ومحاولة الإحاطة بأكبر قدر منها، فيما يعرف اليوم بالعلوم

النظرية أو « المحضة »، يتجه آخرها إلى تحريك الإنسان المسلم باتجاه استخدام هذه المعرفة العلمية للقوانين الطبيعية. استخداماً تطبيقياً في واقع حياته، من أجل تغيير هذا الواقع صوب الأحسن والأرقى..

وليس هذا الموقف من خام « الحديد »، بأبعاده المختلفة، سوى مثل من الأمثال العديدة المنبثة في القرآن الكريم حول هذه الحلقة الثالثة من حلقات التعامل مع الطبيعة والعالم..

إن كل « موقف » قرآني، يشكل وحدة عضوية لا تنفصم عراها، يمكن أن نحظى بأبعادها، وصيغتها النهائية، بمجرد أن نجمع الى بعض كل الآيات التي تغذّي هذا الموقف وتشكل مادته الحية.. في الاقتصاد.. في الاجتماع.. في السياسة.. في الادارة.. في النفس.. في العلاقات الدولية.. في استراتيجية الحرب.. في العقائد.. في المعاملات.. في الآداب.. الى آخره.. في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبوكة، التي تصنعها وتصورها، وتمنحها شكلها النهائي، مجموعة من الآيات المنبثة، لأكثر من سبب موضوعي أو جمالي، في ثنايا القرآن.

والآن، ونحن نتكلم عن « الحديد » نلتقي بسورة كاملة تسمى بهذا الاسم، ونتذكر - في الوقت نفسه - الآيات

السابقة من سورة « سبأ » التي تذكر نعمة الله على نبيه وعبده داوود بتسييل الحديد له، أو بتعليمه كيف يسيّل الحديد!! وهي بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع.. ونتذكر أيضاً « ذا القرنين» وهو ينادي الجماعة المضطهدة:

﴿آتوني زُبَرَ الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين، قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطْرا. فما اسطاعوا أن يَظْهروه، وما استطاعوا له نقبا﴾!!

وتعرض آية أخرى نفسها لإتمام الصورة، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم..﴾، لكي ما يلبث الانسان المسلم، والجماعة المسلمة،أن يعتمدا الحديد، هذا الخام الخطير، المذكور في عدد من المواضع، والتي سميت إحدى السور باسمه، مادة أساسية لإعداد « القوة» وإرهاب الأعداء في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على « إرهاب» اعدائه!!

ثم، ألا يلفت أنظارنا هذا التداخل العميق والارتباط الصميم، في آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين

الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته «البأس» و«المنفعة»، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿من ينصره ورسله بالغيب﴾ و﴿ان الله قوي عزيز﴾؟.

إن هذا الموقف المتداخل يعود بنا - ثانية - إلى ما سبق وأن ذكرناه في أول هذه الملاحظة من أن الإسلام جاء لكي يشد الإنسان الى الأرض، ويدفعه الى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحماية هذا العمران.. والى أن المسلم لن تحميه وتنصره إلاّ يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والنصر.. وأنه بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعّال هذا ويختار مواقع الفرار والاتكال والانتظار السالب لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وإنه سينهزم لا محال، ما دام قد أشاح عن هذه الحقائق القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة:

إنه بدون الاعتماد الواعي المسؤول البصير بمصادر القوة والبأس فلن يكون هناك «نصر» أو «حماية» للموازين العادلة التي جاء الأنبياء (ع) بكتبهم وتعاليمهم لتنفيذها في الأرض.. حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرعون!!

ألاّ يستعبدنا التراث.. ذلك هو الجواب

ألم يسأل أحدكم نفسه، ولو مرة واحدة على الأقل، هذا السؤال الملح:

أين الأدباء الكبار في عطائنا الاسلامي المعاصر؟... لماذا لم يبرز شاعر كبير أو روائي كبير أو مسرحيّ أو ناقد كبير؟.... كبير على المستويين القومي والعالمي على السواء؟... لماذا برز هؤلاء عبر كل المذاهب والاتجاهات، دينية ووضعية، ولم يبرز عندنا؟..

إن أي واحدٍ منا يستطيع إذا شاء، أن يعثر على عمل فني أو أدبي كبير يعبِّر عن الموقف اليهودي، أو المسيحي، أو القومي، أو الوطني، أو اللوني، أو الماركسي.. أعني عملاً كبيراً بمعنى الكلمة، شكلاً ومضموناً... في الرواية... في القصيدة... في المسرحية... في النقد... وفي أي فن يعتمد الكلمة المعبرة جسراً لنقل التجربة والرؤية البشريتين إلى الآخرين..

من منا لم يسمع بشاعِر المقاومة الفرنسي «أراغون»، وبالقاص الروسي «غوركي»، وبالروائي الشيوعي

« شولوخوف »، أو غريمه الليبرالي « باسترناك »، أو بشاعر الماركسية « مايكوفسكي »؟..

ومن منا لم يسمع برواية « كونستانتان جيوروجيو » (الساعة الخامسة والعشرون) ذات النفس اليهودي الخفي؟ أو بقصة « هنري سيرويا » (الحقيقة ولدت في المنفى) ذات الإيحاء المسيحي الشاعري العميق؟... وغير هؤلاء الذين لم نورد أسماءهم إلّا على سبيل المثال، عشرات بل مئات..

لا يقل أحدكم إن هذا بسبب هزائمنا المستمرة في العقود الأخيرة، وبسبب الضغوط الثقافية والسياسية الهائلة التي لا تطاق، والتي سلطت بكل أسلوب لسحق أي نشاط إسلامي وقتله في المهد، لأن الأدباء الكبار يبرزون دائماً من قلب الهزائم.. وعلى وهج النار المحّصة تلتمع قرائحهم، كالنجوم الوضّاءة في أعماق الليل، لكي تبث ضوءها الأزرق الجميل على الكائنات، وتمنح إبداعها وروعتها لكل راء.

ولا يقل أحدكم إن ذلك يكمن في موقف الإسلام نفسه... فمن العبث وقد انتصر الاسلام بقوة « الكلمة » القرآنية المعجزة في قدراتها التعبيرية، وفي جماليتها الساحرة شكلاً ومضموناً أن نناقش رأياً سخيفاً كهذا!!

وباستطاعتنا جميعاً بعد تهافت هاتين الحجتين أن نبحث عن الأسباب.

أكبر هذه الأسباب يكمن في مثقفينا أنفسهم، في تكوينهم الفكري وتجربتهم النفسية، وفي قوائم الكتب التي يطالعونها..

إن معظم هؤلاء الذين نسميهم - تجاوزاً - بالمثقفين لا يقرأون، منذ لحظة تفتح وعيهم على القراءة، واتصالهم الوثيق الدائم بالكتاب، إلا الكتب التراثية.... ولا يتوسعون، وينفقون ساعاتهم الغالية إلا في نطاق معطيات القرون الأولى..

فإذا ما قرأوا أدباً، فإنهم لا يقرأون إلا للجاحظ، أو ابن المقفع، أو ابن عبد ربه، أو الأصفهاني، أو ابن الجوزي..

وتراهم غادين رائحين إلى الكازينوات والمكتبات والنوادي، وهم يحملون، محنيّي الظهور، منكسري الأنفس، مجلدات التراث المغبرة، الصفراء، وتلوك ألسنتهم باعتزاز كتاب «الحيوان» أو «صفة الصفوة» أو «البيان والتبيين»!!

إنهم يعيشون في عصر آخرَ غير عصرنا..

لقد أوهموهم أن الفكر الحقيقي لا يخرج عن نطاق تراثنا

أبداً، وأن الذي يريد أن يتثقف - بحقّ - فإن عليه أن يتجاوز معطيات الإنتاج المعاصر، وألا يشغل نفسه به لحظة واحدة: فكراً كان، أم أدباً، أم فلسفة، أم فناً..

والحق إننا نستطيع أن نتلمس في نفوس هؤلاء إحساساً مزدوجاً ما كان لهم أن يقبلوه لحظة واحدة...

إنهم من جهة يرون أية مطالعة في معطيات الفكر والأدب الحديث خطيئة ودنساً لا ينسجمان وحسّهم الديني ونظرتهم الروحية إلى الحياة..

وهم من جهة أخرى، يرون المطالعة في كتب التراث نوعاً من التطهر والتقوى يتقربون بها إلى الله.... فما دمت أرهق نفسي في مطالعة كتاب - يقول أحدهم - فلماذا أقرأ كتاباً يبعدني عن الله؟ ولماذا لا أجعل عملية المطالعة نفسها جزءاً من عبادتي وتقواي؟....

ثم ماذا تكون النتيجة؟ إنها هذا الفراغ المحزن الذي نراه في عطائنا الأدبي المعاصر..

إن هؤلاء المثقفين، وقد عاشوا عصراً غير عصرهم وتعاملوا مع كلمات وتعابير كانت مناسبة لبيئتها، مستجيبة لمتطلباتها التعبيرية، لكنها غدت غير مناسبة لبيئتنا نحن مستعصية على متطلباتنا وبداهاتنا التعبيرية... سرعان ما

يجدون أنفسهم بعد رحلة سنين طويلة في ميدان العلوم النقلية وكتب التراث، غير قادرين بالمرة على أن يكتبوا حرفاً واحداً، أو يبدعوا أثراً أدبياً باقياً.

وكل ما يستطيعه أي واحد من هؤلاء، كل ما جناه من سني الكد والسهر والعناء هو أن يبدي إعجابه المتزايد بديباجة ابن المقفع، وجزالة الجاحظ، ونقدات ابن الجوزي!!

وهذا التشبث «المتحفيّ» بالتراث، والانقطاع المحزن عن تيار الفكر المعاصر وصخبه واندفاعه وحيويته وتمخضه الدائم، لا يسلب مثقفينا هؤلاء القدرة على التعبير فحسب، ويحررهم من أداة التواصل الإبداعي مع الناس، إنما - وهذا هو الأخطر - ينفي أية تجربة وجدانية أصيلة في نفوسهم، ويجمّد أيّ تفجر إبداعي في تجربتهم الذاتية، ويصدّهم بالكلية عن النظر إلى أعماقهم هم حيث يكمن الموقف الحقيقي الذي يصنع الآداب ويبعث الفنون.

ومن ثمّ، فهم يخرجون على الناس، بعد رحلتهم الخارجية «الساكنة» مع التراث... وقد انفصمت شخصيتهم، فانهال غبار القديم على ذواتهم الباطنية الأصيلة، ولم يعودوا يرون ويتعاملون إلاّ مع شخصيتهم الثانية المتحفية، المعلقة دوماً على

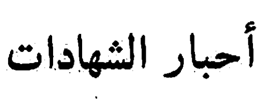
رفوف المكتبات القديمة والمتأبطة أبداً كتب أناس ماتوا منذ مئات السنين ولم تعد معطياتهم تبعث رجفة الإبداع والتدفق في نفوسنا لأنهم عاشوا في عصر غير عصرنا، وكتبوا بلغة غير لغتنا.. .

باختصار... إن مثقفينا لم يستكملوا مقومات التجربة الإبداعية الذاتية التي تتفجر عن الرؤية الإسلامية، قصةً، أو رواية، أو مسرحية، أو قصيدة، أو عملاً نقدياً.... التجربة التي كبتها التحرك الطويل في الدهاليز المظلمة، وحنطتها الروح المتحفية الساكنة، وفصمها عن الواقع المتغير ذلك التشبث بالعصور القديمة والذي يقرب بأصحابه حيناً من الوثنية الفكرية والعبودية التي لا تعرف التحرر من أسر التراث..

والبديل الوحيد الذي نسدّ به بعض مساحات فراغنا الأدبي المعاصر، معروف.... أن يتحرر مثقفونا من عبوديتهم للتراث، وأن يستأصلوا من نفوسهم عقدة الخطيئة إزاء معطيات الأدب العالمي الحديث.... أن يعيشوا عصرهم ويعتمدوا لغتهم... أن يعودوا إلى ذواتهم لكي ينظروا فيها ويعمقوا وعيها الباطني وتجربتها الابداعية التي تكمن وراء أي عمل أدبي أو فني كبير.... وقد علمنا رسولنا عليه السلام «ان الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

ولن يحمل هذا الكلام أي معنى لدعوة ترفض التراث بالكلية لأن معنى هذا التنازل عن شخصيتنا التي تميزنا عن الأمم والتنكر لماضينا الذي نستمد منه القدرة على البقاء... ولن يقول بهذا إلا خائن أو مهووس، والذي نطرحه شيء غير هذا بالمرة...

ويبقى البديل الوحيد هو أن نعيش عصرنا من خلال رؤيتنا الاسلامية.. وحدها.. وألاّ يستعبدنا التراث.



أحبار الشهادات

في مؤسساتنا الجامعية، في كليات الآداب والمعارف الانسانية في بلادنا، يركب الاكاديميون السطحيون مطية جديدة تدعى « الروح العلمية ».

إنهم غير قادرين على أن يكتبوا صفحة واحدة، أو يبدعوا بحثاً أصيلاً... ولكنهم يغطّون عجزهم هذا بادعائهم « الروح العلميـة » واتهـام الآخرين من الـذين يكتبون ويبدعون بتجاوزهم هذه الروح!!

إنهم يجهدون الأشهر الطوال بحثاً عن عدد من النصوص في مسألة معينة ثم يقومون بتنسيقها وتنضيدها وفرشها على صفحات أبحاثهم، دونما أية قدرة على الربط، أو رؤية شمولية تجمع المسألة من أطرافها، أو أسلوب متميز على أقل تقدير.. لقد تمخض الجبل فولد فأراً.. ولكنهم يقولون : إن هذا الفأر الذي لا تكاد تراه هو البحث العلمي الأصيل، لأنه يتميز بالكثافة والتركيز والجودة وطول الذيل، وإنه ليس المهم أن نكتب المؤلفات الطوال وندبج الصفحات المتلاحقة، ولكن

أن نخرج على الناس، في فترات متطاولة من الجهد والكد والعناء.. ببحث «علميّ» كهذا..

إن الكتب الكبيرة والأبحاث الكثيرة - وفق منطوقهم «العلمي» - غثاء لا قيمة له، والأحرى أن يتجاوز الإنسان مواقع «البلاغة» و«الإنشاء» و«الصحافة» الى خط البحث العلمي «الأصيل».. وكثيراً ما تلاعبوا بكلمة «الأصيل» هذه، فردوا أبحاثاً ممتازة على أعقابها بحجة انها غير أصيلة، وتقبلوا أخرى ضئيلة، بحجة انها الأصيلة. إنهم أشبه بالأقزام الذين لا يستطيعون أن يتعاملوا الاّ مع الأشياء الصغيرة، فإذا ما تقدمت اليهم بشيء كبير لم يعتادوه، داروا حوله مستغربين، وقد مدوا شفاههم باحتقار، دورتين أو ثلاث، ثم بصقوا عليه، وغادروه للتعامل مع الصغائر والجزئيات!!

ولا يقف «الاكاديميون» عند هذا الحد.. ويا حبذا.. لكنهم يتجاوزونه - وهم يركبون مطيتهم - الى مواقف أخرى أكثر سخفاً وخطراً في الوقت نفسه،ذلك ان معظمهم عاد وهو يحمل شهادة التخصص في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ، ويحمل مع «الشهادة» تعليمات وتوصيات من الأساتذة «المشرفين» هناك، بتدمير كل ما يقف في طريقهم

من قيم الإسلام وتعاليمه، وهدم كل ما يمرون به من معطيات تاريخه الطويل، وتفكيك كل ما يعرض لهم من منجزات وعمارات حضارية أبدعها الأجداد، وتحويلها الى حصى وتراب، نكتشها على رؤوس أصحابها..

ماذا يقولون وهم يمارسون هذا التخريب كله؟ إنهم يعتمدون «الروح العلمية».. وماذا عن مقدرتهم في فهم أبعاد العلم، وتقدير مسؤولياته الصعبة وإدراك روحه الجادة، البنّاءة؟ لا شيء..

أدوات يسخرها الكبار، للهدم والتخريب.. ومن أجل أن يجعلوها أكثر قدرة على العمل يركبونها مطية سريعة العدو في زمننا هذا، يسمونها زيفاً «الروح العلمية».. وإذا كان احبار بني إسرائيل، يومها، قد حملوا أسفاراً لم يعملوا بها، ولا فقهوا ما في سطورها.. فإن الأمر قد إنعكس الآن وأصبح احبار الشهادات يُحملون، لا يَحملون.. والأمر سواء!!

مأساة الانفصال والاندماج

ما أشد حاجة المسلم المعاصر القلق المتأرجح بين الانفصال عن المجتمع الجاهلي الذي يحيا في قلبه وبين الاندماج فيه، ما أشد حاجته الى من يهديه سواء السبيل ويحدّد له معالم الطريق.. ذلك ان الانفصال الكلي أمرٌ مستحيل لأنه فوق طاقة انسان يحيا في صميم مجتمعات القرن العشرين بكل ما تحويه وتتضمنه من تعقيد وتشابك في العلاقات، ومن اتساع في خطوط وامداء التعامل الاجتماعي بالنسبة لكل المنتمين اليه... واما الاندماج الكلي فهو أمرٌ مستحيل كذلك لأنه سيفقد الانسان المسلم تميزه كمسلم، وسيصهر قيمه ومعتقدأته ومثله في أتون تجربة اجتماعية لا تعرف شيئاً عن القيم والمثل، ولا تؤمن يوما بفكرة تعلو على مستوى الوقائع والمصالح واليوميات، ولا بعقيدة ترفض ان تغدو العلاقات الاجتماعية علاقات منفعة متبادلة وتدافع قتال على التكاثر.. باختصار ان الاندماج الكامل سيجرّد المسلم من إسلاميته وسيحيله انسانا عاديا تافها حتى لو صام الدهر كله وصلى في اليوم

خمسين مرة!!

إن الانفصال الكلي يقود المسلم، شاء أم أبى، الى ظاهرة من ظواهر الترهبن والانسلاخ السالب عن مجرى الحياة والتطور، أو الى تجربة من تجارب اللاانتماء التي عرفها الغربيون خلال العقود الأخيرة، وهي جميعا لا يمكن الاّ ان تشلّ المسلم عن العمل، وتحرم الحياة الواقعية من ان ترفدها قيم الاسلام وعقائدياته واخلاقياته، وتتجه ببعض مساحاتها على الأقل صوب مطالب الاسلام وحلوله المعجزة..

والاندماج الكلي يقود المسلم الى ظاهرة من ظواهر الفناء والذوبان في إطار التجربة الاجتماعية بكل انحرافاتها وتناقضاتها ومآسيها،أو الى تجربة من تجارب الانتماء (الشيئي) الى عمل ما من أعمال هذا المجتمع الوظيفية اليومية، أو الى هدف ما من اهدافه القريبة الميسورة.. ومن ثم كان هذا التأرجح وهذا القلق اللذان يعاني منهما المسلم المعاصر واللذان يجب أن نعترف بثقلهما وضغطهما علينا جميعا كي نكون أكثر واقعية واشد إيجابية، فنسهم جميعا في العمل الجاد المخلص والتنقيب في ثنايا فكرنا عقيدتنا وتشريعاتنا وتاريخنا وحضارتنا علنا نصل الى الحل الوسط الذي يحملنا كمسلمين حقيقيين الى قلب كل مجتمع لكي نؤثر في صميم بنائه

وتركيبه، ونهيئه لتقبل القيادة العادلة المستقيمة التي وعد الله بها عباده المخلصين يوم أن قال:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾...

وصدق الله العظيم...

معطيات الصدق والتوحّد

إن عنصر الإبداع الفني في معطيات الصوفية يكمن في انهم لا يصوغون عبارات يستمدون مضامينها من المرئي والمسموع والملموس في عالمهم الخارجي.. ولا يشكلون صوراً فنيّة سداها حركة العالم من حولهم ولحمتها تمخّضه الدائم.. ولكنهم يصوغون ويشكلون حبرهم والوانهم من دمهم الذي يجيش في أفئدتهم ومن ديمومتهم وهي تجول في عالمهم الباطني ألف جولة في اللحظة الواحدة وتتمخض عن ألف شكل ولون!!

إن تجربتهم العنيفة الباهرة التي تحرقهم تتألق في وجودهم كالنار.. من هذه النار، من جمراتها تنطلق كلماتهم العميقة، المؤثرة، العجيبة، الجامعة المانعة كوهج الجمر وألق النار!!

إن سائر الفنانين وهم يبدعون، يعانون بشكل أو بآخر ثنائية وازدواجاً بين إبداعهم وبين تجربتهم الذاتية ومن ثم يتمزقون، ويصل التمزق ببعضهم احياناً حدّ الانفصام

والانشطار والجنون... ان عالم إبداعهم وعطائهم، بعيد عن متناول حياتهم اليوميه وتجربتهم المعاشه.. وهم يتمنون التوحد بين عطائهم في عالم الفن وسلوكهم في ميدان الحياة... ولكنهم - لعجزهم أو خوفهم أو قصورهم - لا يخطون الخطوة الحاسمة الاخيرة لكي يحصلوا على نعيم هذا التوحدّ والتكامل والانسجام..

لكن عطاء الصوفية يعلمنا، ونحن ننهل من بحره الصافي العميق، شيئاً آخر.. إن هذه الفئة من الفنانين لا تبدأ بالعطاء إلا بعد أن تتحول حياة كل منهم - عبر صراع طويل وشاق - الى نغمة تتفجر ألحاناً علوية، وريشة تنقش على صفحة الحياة أبدع الرسوم، وقلم يعبر ببساطة وعفوية عن أدق التجارب وأصعب اللحظات وأخطر الرؤى..

ومن ثم يجيء هذا التوحد والتكامل والانسجام بين حياتهم وعطائهم.. بين تجربتهم الذاتية وإبداعهم الجميل، بين أقوالهم وكلماتهم.. وإذا كان هنالك جنون في عالم الفن الصوفي فهو جنون النشوة والاندماج والفرح العميق، لا جنون الكآبة والتمزق والحزن.. وشتّان.. ولينظر أي منكم قصائد جلال الدين الرومي في «المثنوي» لكي يتأكد من صدق هذا الذي نقول!!

إن عدداً من نقاد الفن وفلاسفة الجمال يبينون لنا أن قيمة العمل الفني تكمن في صياغته، في اسلوبه وتكنيكه.. وهذا حق.. ولكن يجب ان نضيف اليه أن هذه القيمة تكمن احياناً اخرى في «صدق» الفنان و«توحّد» عطائه مع تجربته الذاتية... فما دام هذا الصدق النقي المحمّل بالاحساس العميق والرؤية المركزة المترعة، يحدث فينا هزة الجمال والجلال والانفعال والدهشة والاعجاب والاندماج فانه يرتقي بمبدعه الى قمة الإبداع الفني، مهما كان اسلوب «صياغته» متواضعاً بسيطاً.. فكثيراً ما جاءت الاشكال الفخمه والصياغات الممعنة في تعقيدها وزخرفتها غطاءً يخفي وراءه وجداناً خاوياً وإحساساً رتيباً وتجربة ميتة لا تقدر على حمل صاحبها الى تخوم الحياة.. والتفجر.. والإبداع!!

القمر.. من الجانب المظلم!!

إن أزمة معظم متخصصي التاريخ في جامعاتنا انهم قرأوا كثيراً عن التاريخ الاسلامي بانحرافاته.. بمساوئه، بتجاربه الزاخرة بالسّراء والضرّاء.. بمساحاته التي تناوبت عليها، الاضواء والظلال.. ببقعه السوداء والبيضاء.. ولكنهم لم يقرأوا شيئاً ذا بال عن الاسلام نفسه.. الاسلام كدين وحركة ومنهج وموقف ورؤية وتخطيط.. لم يقرأوا ما يوازي دراساتهم عن الواقع التاريخي وبالتالي ما يمنحهم موقفاً متوازياً، ويمكنهم من ان يكونوا أكثر موضوعية في اصدار احكامهم على الاسلام ومعطياته في شتى المجالات..

بالأحرى، إن أكاديميينا عرفوا الاسلام من خلال واقعه التاريخي لا منطلقاته النظرية.فكان رفضهم وتجريحهم ونقدهم المتحيز، وموقفهم السيء المحزن، تجاه كل ما هو(إسلامي).

ولم يكن الواقع التاريخي لعقيدة او نظرية ما، في يوم من الأيام،هو المقياس الأول والأخير للحكم على قوة تلك العقيدة أو النظرية وتماسكها أو ضعفها وتهافتها... اذ كثيراً ما يحدث

وأن تنحرف الخطوط الفكرية عن مساراتها المرسومة لدى تنفيذها في عالم الواقع، وهو امر يعود بأسبابه الحقيقيه الى الانسان الفرد والى الجماعة البشرية، أي الى مؤثرات النفس والمجتمع، بما تحمله من تعقيد وتشابك ليس بمقدور أحد أن ينفي ثقلها في ميدان التنفيذ التجريبي للمبادىء والمفاهيم والافكار.. وتكمن قيمة الفكرة، وفق هذه المعادلة الصعبة، بمقدار ما تملكه من إمكانية التنفيذ بأكبر قدر ممكن من الأمانة والاستقامة.. وليس من شك في أن الاسلام يقف في المقدمة في هذا المضمار، ويظل، رغم الظروف التاريخيه المعقدة في كثير من الاحيان، يملك قدرته على التعامل المتجانس مع الواقع.

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء المتخصصين لو اقتصروا في دراساتهم على حدود التجربه التاريخيه في الاسلام لما كان هناك خطأ يخشى من أحكامهم، رغم أنهم، لسبب او لآخر، يقفون طويلاً عند النقاط السوداء في تاريخنا، ويتشبثون بمواقع الظلال العميقة، ويتمسكون بأذيال كل واقعة أو حادثة فيها رائحة إدانة وتجريم لتاريخ الجماعات الاسلامية.

لكن هؤلاء لا يقفون عند هذا الحد بل يتجاوزونه الى إصدار أحكامهم وتقييماتهم للاسلام نفسه، باعتباره دينا

وحركة ومنهجاً وموقفاً ورؤية وتخطيطاً.. فهم من مناظيرهم المعتمة، المليئة بالدخان، يسعون - عبر عملية تعميم خاطئة من اساسها - للحكم على الاسلام، دون أن يكونوا قد قرأوا في معطياته الاساسية، أو في الأبحاث والدراسات العديدة، القديمة والحديثة، التي دارت حوله، شيئا يذكر.

ويقيناً أن بعض هؤلاء المتخصصين في التاريخ الاسلامي، من حملة الشهادات العليا، لم يكونوا قد قرأوا كتاب الله يوماً من ألفه الى يائه، بل لم يكونوا قد قرأوا، وبشكل مباشر يقوم على التعمق الذكي والنظرة الشمولية، شيئاً يذكر من سوره ومقاطعه وآياته... والدليل هو أن أحدهم ما اورد يوماً آية أو مقطعاً، في القليل النادر، إلاّ تلاها محرّفة، مبتورة، مليئة بالأخطاء... وما يقال عن كتاب الله يمكن أن يقال عن سنة رسوله عليه السلام.

أما الدراسات الحديثة، الجادة، عن الاسلام في شتى مجاليه، فإنهم لم يقرأوها أو يمرّوا عليها ألبتة، بل يستطيع المرء أن يجزم أنهم ما سمعوا بمعظمها..

فكيف لنا أن نتوقع من هؤلاء المؤرخين مبتوري الثقافة، أن يتخذوا موقفاً موضوعياً بنّاءً من الاسلام والفكر

الاسلامي؟ وهل كان بمقدور أي متخصص في علوم الحياة يوماً - على سبيل المثال - أن يتحدث بقدر كاف من الموضوعية عن تاريخ الأدب الاندلسي أو العوامل المعقدة المتشابكة لسقوط بغداد؟!

التوافق العظيم

يمكن تعريف «الإسلام»، باختصار وتركيز بالغين، بأنه:

إعادة لصياغة الانسان ووضعه في مكانه الصحيح من الكون.... الإنسان الذي تعرضه حركة تاريخه - الذاتي، والخارجي - الى أن يخرج مرات ومرات عن إطار فطرته الأصيلة المعجونة بإعجاز من الروح، والمادة، والفكر، والدم، والأعصاب، والوجدان، والعواطف، والشهوات، وتبعده بالتالي عن مساره المرسوم في العالم... ولا يكون نتيجة هذا الخروج والإبعاد، إلا تمزقاً في الذات البشرية وانحرافاً في طرائق تعاملها مع العالم، ومن ثم شقاءً وتعاسة وانهياراً..

ويجيء قادة الفكر الوضعي لكي يصنّفوا المبادىء ويرسموا الشرائع ليتعامل معها الانسان المنكود، معتقدين أن طاقاتهم النسبية المحدودة ستمكنهم من رؤية شاملة موضوعية لفطرة كل إنسان، ولدور كل آدمي على سطح الأرض..

ومن ثم تجيء محاولاتهم ضرباً في التنيه، وإبحاراً في الظلمات دون شراع واحد ولا بصيص من نور... فيزداد الانسان نأياً

عن توازنه الفطري الأصيل، ومروقاً عن دربه المستقيم في قلب العالم....

وهذا النأي أو المروق يجمّد طاقات الانسان، ويطمس على بصيرته، ويغطي قلبه وإحساسه برِيْن من التراب والغبار، ويشل فاعليته، فلا يقدر بعد على أداء دوره «كاملاً» على مسرح الحياة الدنيا، فيفقد بذلك فرصته الكبرى، ويكتب على نفسه التعاسة في الأرض والسماء!!

أما «الإسلام»، فإنه تخطيط العليّ القدير العليم لإعادة الانسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، وبعثه في طريقه المرسوم لكي يحيا تجربته البشرية كاملة، ويعطي كل ما عنده، ويعبّر عن شتى طاقاته من أجل أن يسهم إسهاماً فاعلاً في «إعمار» الأرض الذي أُنيط به كخليفة مسؤول أمام الله..

ومهما سعى العبيد وحاولوا، فلن يزيدوا الانسان إلاّ تخبطاً وضياعاً، ولن يحكموا على طاقاته وقدراته إلاّ بالتشتت والاضمحلال..

ولن يكون الخلاص إلاّ بإشارة من الذي صنع الانسان نفسه، ومنحه فرصة الاختيار والعمل في كون شاسع واسع يضيع فيه ويتحطم كل من لم يعرف موقعه المحدد على الخارطة الأبدية، وطريقه المرسوم في بنيان العالم!!....

الحرب.. والإنسان

إن الذي يطلع على بعض صور الحرب والصراع في الغرب والشرق كتلك التي نجدها مشخصة واضحة في رواية مركريت ميتشل (ذهب مع الريح) التي تتناول فترة الحرب الاهلية الامريكية في النصف الثاني من القرن الماضي، أو في رواية تولستوي (الحرب والسلام) التي تتناول عصر نابليون بونابارت، أو في رواية ميخائيل شولوخوف (الدون الهادىء) التي تتناول فترة المقاومة القوزاقية للجيش الأحمر... الذي يطلع على أعمال تصويرية كهذه، وغيرها كثير، ويقارنه بأساليب الحرب والقتال في تاريخنا الاسلامي، وبخاصة سني العقيدة والالتزام، يجد شيئا عجبا يثير الدهشة والاستغراب..

إن ثمة فرقاً شاسعا بين اناسٍ وجماعات وامم تقتتل باسم المصالح والعصبيات والاهداف القريبة الزائلة، وبين أمة تقاتل باسم الله سعياً وراء كل ما هو انساني أبدي بعيد عن المصالح، والعصبيات والقيم الزائلة.. فرقا شاسعاً بين جماعات تقتل وتذبح وتفتك وتدمر مستخدمة أي سلاح تصل اليه

أيديها، متذرعة بأية وسيلة تسندها في سحق غريمها، سالكة أي درب يصلها الى أهدافها، وبين أمة لا تمارس القتال الا بالسلاح الشريف والوسيلة الانسانية وعلى درب مستقيم لا تنحرف فيه يد كي تحمل سلاحا لا يقره الانسان ، أو تستخدم أسلوبا تربأ عنه حتى عوالم الحشرات والديدان.

إن مناظر القتل والدمار التي يعرضها علينا تولستوي وميتشل وشولوخوف وغيرهم تضعنا وجها لوجه امام ابتذال الحياة الإنسانية ورخص الدم البشري ومجانية العلاقة بين القوى المتصارعة على ظهر البسيطة... وتدفعنا دفعا الى زاوية الاحتقار والتشاؤم والالتصاق بالعصبيات المصلحية أو الطبقية أو العنصرية، علها تحمي القطعان الهاربة من الجزارين العتاة الغلاظ، أو تمنحها سلاحا أحدَّ قطعاً وأشدَّ فتكاً...

لكن الذي يعزّي الانسان ويهبه الثقة والأمل واليقين ان في تاريخه صوراً واقعية أخرى شهدتها ميادين الصراع وساحات الحرب مرات ومرات، ظل فيها ابن آدم إنسانا حتى وهو يقاتل ويحارب ويصارع، دون أن يضطره القتال والحرب والصراع الى أن ينقلب على آدميته ويستعير من عوالم الفهود والحيّات كل شراستها وسمها الزعاف دون أن يأخذ منها ولا

مقدارا ضئيلا من العطف والسماحة التي تمارسها بين الحين والحين..

واقرأوا إن شئتم (ذهب مع الريح) و(الدون الهادىء) و(الحرب والسلام) ثم تمعنوا بعد ذلك في صفحات الحرب في تاريخنا الاسلامي عبر مسيرته الطويلة.. الطويلة.. فسوف تلتقون في المرة الأولى ، برخص الانسان وحقارته، ومجانية الدم الانساني وابتذاله، وسوف ترون في المرة الثانية - رأي العين - غلاء الدم وشرف الإنسان، وكرامة بنيان الله في الارض، وإنه ملعون من هدم بنيانه!!

ليس تقليداً... لكنه مسؤولية

كما أن أي مهندس أو طبيب لا يستطيع أن يستقل بعمله إلاّ بعد استكمال أدوات العمل ومهارات التخصص وخبراتها.. وكما أنه ليس لرجل اعتيادي أو مريض إلا أن يستشيرهما بصدد بناء بيت أو علاج مرض... كذلك موقف «المسلم» إزاء المسائل الفقهية والقضايا التشريعية..

إنه ليس تقليداً ذلك الذي يمارسه المسلم «المسؤول» في مسائل حياته جميعاً، وهو يرجع إلى معطيات أبي حنيفة، أو الشافعي، أو مالك، أو ابن حنبل، أو غيرهم..

وليس تقليداً ذلك الذي يعمله المسلم وهو يستفتي، في أية مشكلة تعرض له، هذا الفقيه أو العالم، أو ذاك..

ليس تقليداً ولكنه شعور بالمسؤولية، وتقدير لموقع الانسان في خارطة المجتمع، واحترام ملزم لشريعة الله.. فليس في مقدور أي مسلم عادي، قبل أن يستكمل أدوات التعامل مع الشريعة، ويتمكن من خبرات الاجتهاد، ويحيط علماً بمقاييس الاستنباط والمناظرة والتفريع، أن يشترع على هواه،

وأن يصدر الأحكام كما يشتهي، وأن يفتي لنفسه وللناس بما يرتأيه..

ولو جاز لكل إنسان أن يمارس مهنة الطب أو الهندسة دون أن يدرس شيئاً عنهما، بل دون أن يستكمل سائر ضرورات التخصص في حقولهما المختلفة، لجاز للمسلم العادي أن يجتهد في أمور دينه دون أن يلزم نفسه بالرجوع الى أحد الأساتذة أو الشيوخ المتخصصين في مسائل الاجتهاد، والتشريع، أولئك الذين أفنوا أعمارهم وهم يضربون في بحر الضرورات العلمية التي تفرضها مهمة «الاجتهاد» الشاقة العسيرة على كل الراغبين في اقتحام خضمّها العميق...

إن الدور الكبيرة التي يبنيها أناس لا خبرة لهم بمسائل الهندسة المدنية، ستنهار على رؤوس أصحابها يوماً...

والأمراض الخطيرة التي يعالجها رجالٌ لا يعرفون عن الطب شيئاً ستؤول بالذين يعانون منها إلى الدمار... والموت..

وكذلك تخرج الشريعة عن أهدافها، وتنزع عنها ملامحها، وتنشق عن شخصيتها وتميّزها... عندما تغدو لعبة ميسورة في أيدي كل الناس، يعملون فيها - على هواهم - بمشارطهم لكي يستخرجوا منها حلاً لمشكلة عويصة أو فتوى لوضع

اجتماعي معقد... وما أكثر المشاكل والأوضاع المستجدة في عالم لا يكف عن الحركة والتمخض..

إن ثمة نوعين من الرجال يدعوننا الى أن نتخذ هذا الموقف من شريعة الإسلام.. هذا التعامل المجاني السهل، الرخيص، مع منهاج الله.. ساذج أو خبيث ...

ساذج يتصور أن إخراج الاسلام عن عزلته المعاصرة لا يتم الا بتحويل كل المسلمين الى مجتهدين، وتوزيع شهادات التخصص عليهم، دون أن يدرك أن «العزلة» ليست في هذا ، وإنما في حجب الإسلام عن الوصول الى «الحكم» في عالمنا الراهن.... الحكم الذي هو البداية الحقيقية والطبيعية لمجابهة مشاكل الحياة والمجتمع، بالاجتهاد العلمي، الواقعي، المسؤول..

وخبيث يدرك جيداً أنه متى تحول المسلمون جميعاً الى «مجتهدين» فقدت الشريعة صلابتها، وقوتها، وتماسكها، وانسلخت عن شخصيتها وملامحها وتميزها، وتفتتت قواعدها شيئاً فشيئاً، لكي ما تلبث أن تندمج في مجرى الحياة الصاخب، وتتفكك وتذوب....

وفي مقابل هذا الرفض المسؤول الذي يتوجب أن يكون

عليه المسلمون تجاه قضية التشريع، فإن ثمة رفضاً آخر يتحتم عليهم:

ألاّ تتوقف حركة الاجتهاد... أن تظل مدارسها تعمل، ورجالاتها المتخصصون يتخرجون، ومشايخها وأساتذتها يزدادون خبرة، ومقدرة، ونشاطاً..

إننا إذا قدرنا على أن نتصور مجتمعاً حيوياً متطوراً يخلو كلية من مهندس أو طبيب، ثم يصل إلى أهدافه ببساطة... جاز لنا أن نتصور مجتمعاً إسلامياً حركياً يخلو من مشرّع أو مجتهد، ثم يصل الى أهدافه التي علمنا إياها الله ورسوله...

إنهما حدّان قاطعان كالسكين، أن نتحول جميعاً الى مجتهدين، أو أن لا يكون في مجتمعاتنا المعاصرة أي مجتهد على الإطلاق..

جرّبوا بأنفسكم..

وماذا بعد الموت؟

ألحّ علي السؤال، وأنا أشهد في مقبرة قصيّة - خارج المدينة - مواراة التراب على أربع جثث لعائلة واحدة اغتالتها يد أثيمة في منتصف ليلة سوداء واختفت عن الأنظار..

وإذْ كانت جثث الموتى قادمة من مدينة أخرى غير مدينتنا في صناديق أكبر حجماً، لم يألفها حفارو قبورنا، فقد اضطرهم ذلك الى بذل جهد إضافي استغرقَ أكثر من ساعتين لتوسيع الحفر كي تصلح لالتقام الصناديق الأربع!!..

ودخل الليل وكانت الرياح المغبرة تسفي كآبة وشحوباً. وعندما غادرنا المكان مخلفين القبور الأربع الطرية وحدها، في الصحراء المتربة، التفت ورائي، وعبر زجاج السيارة، ادركت معنى ان يبقى الانسان وحده، جثة.. مغروزة في رمال الصحراء!!

وألحّ علي السؤال : ماذا بعد الموت؟

أنْ يسأل الانسان نفسه، وهو جالس في بيته بين اهله واطفاله يأكل طعاما لذيذا، أو يشاهد برنامجاً مسليا، او يستلقي مرتاحا على سريره الدافيء، أو يتبادل الحوار الشيّق مع اصدقائه في نادٍ أو مقهى.. ومن حولهم تتمخض حركة الحياة الدائمة عن الأمل والبلادة والمتعة والنسيان.. ليس كمن يسأل نفسه، وهو يلتفت فجأة في اعماق الظلام، الى قبر جديد، وحيد، نبت قبل دقائق في قلب الصحراء، وغادره أقرب اصدقائه وأشد محبيه..

ترى.. لو ان دينا من السماء لم ينزل.. ودخلت في عقول الناس، على مدار التاريخ، خرافة الملحدين والعدميين، من انه لا حياة بعد هذه الحياة،لا بعثا ولا حسابا ولا جزاء.. وان نهاية الانسان المطلقة تجيء عندما يسكت قلبه عن الخفقان ويوارى التراب، لكي ما يلبث ان يأكله الدود ويتحول بعد قليل الى تراب يستعد لاستقبال الحفنات الجديدة من التراب الذي لا يكف عن الانقطاع!!

لو حدث وان تحقق هذا، ماذا سيكون شعور الانسان، وهو يقف في المقبرة يشهد دفن صديق أو قريب؟ ماذا سيكون شعوره، وهو يلتفت بعد دقائق الى الجثة المواراة وقد خنقها التراب، وتركت وحدها في الصحراء؟

إن أي مسلم لا يستطيع بفطرته وبداهته ويقينه وايمانه أن يتصور موقفا عدميا كهذا، إنه بمجرد تصوّره يحسّ بالاختناق، ويستنفر كل طاقاته النفسية للخلاص من المأزق واستنشاق الهواء الصافي النقي.. إنه لا يفرق ابدا بين كابوس لا يرحم يدهمه في المنام وبين احساس عدمي قاتم يمر بخاطره في المقبرة!!

أكثر من هذا إن المسلم يستمد من موقف «الفراق» هذا ثقة اكبر بعقيدته التي منحته الأمل الكبير بالبعث والنشور والحساب، وبدينه الذي علمه دائما ان الموت ليس سوى نقلة، نقلة فحسب الى دار اخرى غير هذه الدار، والى حياة اخرى غير هذه الحياة.. ويتملكه احساس عميق بالرثاء، والاحتقار لكل اولئك الذين سعوا الى تزييف الحياة وبترها باعتقادهم ان الانسان يحيا مرة واحدة فحسب ثم يأكله الدود ويلفه التراب، ولا شيء وراء ذلك..

وما أكثر الذين ذهبوا الى المقابر لتشييع صديق أو قريب، وهم لا يملكون إيماناً ولا يقيناً، وإذا بنازلة الموت، وبمشهد حصر الميت بين جدران الحفرة الأربع، وإهالة التراب عليه، تحرك أفئدتهم الميتة، وتهز عقولهم الكسولة، وتغسل عن نفوسهم الصدئة ما علق بها من رين وغبار... فيغادرون المكان وهم أشد إيماناً وأعمق يقيناً..

وفرق وأي فرق بين انسان مؤمن يرجع من المقبرة وهو يحمل املاً كبيراً وبين انسان ملحد يخنقه المشهد المحزن ويزيده كآبة وضياعا..

ثم ماذا عن العدل النهائي المطلق؟ لقد اغتيل أربعة من الأبرياء : أب وأم وطفلان وليس بمستبعد أن يفلت القتلة من طائلة القصاص...

وما قيمة الحياة... وما قيمة الإنسان نفسه لو ترك مصيره هكذا معلقاً على عدل أرضي لا يملك - في معظم الأحيان - الأداة المضمونة لتحققه ونفاذه؟!

إن الاسلام، ذلك الدين القيّم، يمنحنا الجواب في كلتا الحالتين..

ولو لم يكن «الدين» سوى هذا «الجواب» لكان في ذلك وحده الدافع الأكبر لالتزامه، ومعايشته، وتعشقه، والتشبث به حتى آخر لحظة من حياتنا التي يعلمنا «الإيمان» أنها لن تنقطع، ولن تزول، ولن يضيع «حق» من حقوقها بالصدفة أو العبث أو الفوضى..

جرّبوا بانفسكم ذلك... اختبروا صدقه... ليس في بيوتكم ونواديكم.. ولكن في المقابر .. لحظة مواراة جثة صديق أو

قريب.. التفتوا اليها بعد دقائق من مغادرتكم المكان.. وحيدة.. مهملة.. منقطعة في الصحراء..

أمن الممكن أن تكون هذه هي نهاية الإنسان ؟!

ليست الخطيئة أمراً كلياً

هنالك « التفاتة » نفسية رائعة في مجال السلوك الأخلاقي للمسلم تتعلق بتوحِده النفسي...

تلك هي أن الحسنة إذا تبعت السيئة تمحها، وأن عمل الانسان « يسجَّل » له أو عليه، مهما ضؤل، إنْ خيراً وإنْ شراً...

معنى هذا أن الانسان المسلم إذا ارتكب خطأ ما، فإنه لن يصاب بالازدواج، لأن هذا الخطأ لن يطارده دائماً بظلاله السوداء القاتمة، فيعذب ضميره، ويصيب روحه بالازدواج... بل إنه يجد الطريق أمامه مفتوحاً دائماً لإزالة آثار هذا الخطأ ونحوه، بمجرد أن « يحقق » عملاً حسناً!!

إن شعور الانسان بتسلط خطيئته على رقبته أمرٌ شاق وصعب...

ولكن في الإسلام لن تتاح هذه المأساة، لأن الخطيئة ليست أمراً كليّاً يطوِّق الانسان من جهاته الأربع، بل هي في الحقيقة

تجربة « جزئية »، رقم من الأرقام يسجَّل في رصيد المسلم، في زاوية من زواياه؛ وبإمكان المسلم أن يسجل في نفس الرصيد أرقاماً أخرى لصالحه تفوق الأرقام السالبة، فلا يبقى لها أي أثر عددي!!.. وبإمكانه كذلك أن يستشعر ثقة تامة في أن أي عمل حسن يؤتيه سوف يمحو أساساً تلك الأخطاء الجزئية..

وهكذا دائماً، ما دام بنو آدم - بإقرار الإسلام - معرضين للخطيئة..

ولقد مررت أنا بنفس التجربة... كنت في البداية أشعر بالازدواج، وأن ما أرتكبه من أخطاء بسيطة - اللمم بالتعبير القرآني - يقف كأحجار عثرة في طريق مقاومتي من أجل التحقق الكامل..

ولكن عندما تبدت لي الحقيقة بالشكل الآنف، على بساطتها ووضوحها، شعرت بارتياح عميق، فلم تعد الأخطاء في واعيتي أكثر من مجرد قيم جزئية سالبة، تدون في الرصيد ويبقى « السجل الشخصي » بعد هذا مفتوحاً لتدوين أي عمل جديد مهما ضؤلت قيمته!!

هذا ثم إن إقرار الإسلام بالتكوين النفسي للإنسان، ذلك الذي يمارس تجربته الزاخرة بالحسنات والسيئات، المليئة

بمحاولات الخطأ والصواب، وان كل بني آدم خطّاء، وان خير الخطائين التوابون، كما أكد الرسول ﷺ ، تزيد من شعور المسلم بالتوحّد، وتمنحه مزيداً من إرادة التحدي والانتصار والخروج من أسر الأخطاء!!

نداء المحدود والمطلق

في القرآن الكريم ما يمكن أن نطلق عليه(القصد الثنائي)..
فلقد نزلت آيات القرآن في بيئة وزمان ذات معالم وأوضاع حضارية معينة، وثقافة وفكر متميزين.. والقرآن ليس دستور بيئة معينة ووضع حضاري ثابت.. إنه منهج حركة أبدية في المكان والزمان.. امتداد دائم في الارض وتطور في الزمن لا يقف عند حد. فكان على القرآن ان يواجه باعجازه هذه الثنائيـــة، ان يخاطـــب وضعين، ويكون واضحـــاً في كليهما : اولهما أبنـاء العرب والاجيـال المعاصرة لهم بما يمتلكونه من امكانيات حضارية محدودة، وثانيهما(الانسان) في المكان والزمان المطلقين بما يحتويان عليه دائماً من امكانات حضارية تزداد تركيزاً وتعقيداً يوماً بعد يوم.

ولو وقف القرآن الكريم عند المرحلة الاولى، وقدم آياته بحدود فهم العرب ومعاصريهم.. بحدود مكانهم وزمانهم، وباطار معطياتهم الحضارية، لبقي، كأي مصدر وضعي، وهذا غير ممكن لكلام الله، مأسوراً في حدود(تاريخية) لا يتجاوزها

في العمق والمساحة، الامر الذي يتعارض اساساً ومهمته الخالدة.. ولو أنه اتجه الى تقديم آياته على صفة الشمول والاطلاق والتجريد كي تتواءم مع المكان والزمان الكليين لبعد واستعصى على افهام معاصريه الذين نزل عليهم، وهذا تعطيل لمهمته في اتخاذ ذلك الجيل نقطة انطلاق في التاريخ. ومن ثم كان اعجاز الله يتمثل في إحداث توافق عجيب بين المحدود والمطلق، بين القريب والبعيد، بين الظرف الراهن والبيئة المتناهية، وبين الزمان والمكان اللامتناهيين، بين معالم حضارة معاصرة وبين اطر مفتوحة لحضارة الانسان في كل مكان وزمان.. توافق يعطي لعدد من الآيات قصدين : احدهما خاطب البيئة التاريخية والظرف الراهن، حرّك العرب ودفعهم الى الامام لإنجاز المهمة الصعبة الملقاة على عاتقهم، وثانيهما لا تحده حدود، مفتوح لكل تطور ولكل إنجاز.

إن كل تطور وكل إنجاز يمكن ان يزيدا في ايضاح وتفسير هذا(القصد)المفتوح في القرآن. وأبادر فأقول انه ليست كل الآيات القرآنية تتضمن هذه الثنائية، وانما الامر يقتصر على تلك الآيات التي تتعلق بالنواميس الكبرى التي يقوم عليها بناء الكون، رياضية او طبيعية او حيوية او ميتافيزيقية.. من هنا كانت(الآيات العلمية) ميدان اعجاز

عظيم يمكن ان يتقدم بها القرآن الى ابناء كل جيل..ويزداد الاعجاز بازدياد معطيات التطور العلمي والانجاز البشري في حقول الرياضة والطبيعة وعلوم الحياة.. ومن هنا اعلن القرآن الكريم﴿سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي انفسهم، حتى يتبيّن لهم انه الحق﴾. ومن هنا - كذلك - كان على المفسرين المعاصرين الا يتغاضوا عن هذا الجانب المعجز من القرآن بدعوى انه ليس كتاب علوم ونظريات، شرط الاّ يتمحّلوا تفسير بعض الآيات ويرغموها على مطابقة المواضعات العلمية الراهنة التي لم تبلغ ولن تبلغ مرحلة اليقين المطلق..

المعادلة المركّبة

منذ قرون عديدة وحتى فترة قريبة، ظل مفكرو الغرب وكتابــه ومستشرقوه يلطمون الخــدود ويشقّون الجيوب على« رجعية » الإسلام و« همجيته » و« وحشيته »..

لماذا ؟

لأسباب عديدة، منها أنه أباح الطلاق!!

وفي العقود الأخــيرة راح كتّــاب اليسار التقدمي ومستشرقو التفسير المــــادي يلطمون الخدود - هم الآخرون - ويشقون الجيوب.. للسبب نفسه!!

لكن هؤلاء وهؤلاء فاتتهم حقيقة ان المبادىءالتي جاء بها الإسلام وتنزّل بها القرآن الكريم، أشبه بمعادلات من الدرجة الرابعة لا يقدر على فهمها وحلّها الاّ الرجال الذين أوتوا قدراً كبيراً من التخصص والذكاء.. فهي مبادىء لا تكشف عن تكاملها، وتوازنها، ودقتها، وتركيبها المعجز، لكل من يختار منذ البداية أن يضع على عينيه نظارات غامقة الحمرة أو السواد.. أو لكل من يجرفه الهوى عن مواقع البحث الجاد

والأمانة العلمية في التعامل مع الوقائع والمبادىء والقيم.. أو لكل من يريد أن يكون غبيّا!!

لكن حكمة الله جلّ في علاه، لا تقف عند هذا الحدّ.. إنها تعتمد مجريات الزمن المنظور والوقائع اليومية الثقيلة، البارزة للعيان، الظاهرة لأشد الناس غباء واكثرهم هوى، وارغبهم في تعتيم مجال رؤياه!!

تعتمد حكمة الله هذا وذاك لكي تفك رموز المعادلة المركبة، وتمنحهم بإقناع كثيف - لا يحتمل رفضاً ولا جدلاً - النتيجة الدقيقة، المقنعة، الكاملة، لتلك المعادلة..... النتيجة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!!.

ونحن نذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ما شهدته ايطاليا خلال السنوات الثلاث الأخيرة حول مسألة إباحة الطلاق أو تحريمه في داخل البرلمان أو خارجه... وكيف ان الامر انتهى بتصويت الأغلبية الساحقة على الاباحة، لانها - كما تبدى من خلال ضغوط الواقع البشري نفسه وعلائقه المعقدة المتشابكة - ضرورة حتمية لا حيلة في تجاهلها والتهرب من مواجهتها بحكمة وشجاعة..

ولن يستطيع احد أن يقول إن ممثلي امة بكاملها قد

اختارتهم بحريتها، وارادتها، يمكن ان يكونوا في اكثريتهم، أغبياء.. أو أن يمارسوا التزييف والتزوير.. كما لا يمكن القول أنهم عملاء للاسلام رجعيون متأثرون بقيمه ومبادئه، لأنهم يحيون في قلب الأرض الكاثوليكية وحول كنيستها العظمى!!

ومن عجب أن الأحزاب اليسارية في ايطاليا، وعلى رأسها الحزب الشيوعي، اعتبروا قرار إباحة الطلاق نصراً لمواقفهم!!

ألم أقل لكم إنها المعادلة المركبة التي تعتمد، في تكشّفها عن النتيجة الباهرة، أحياناً، وحيث يغيب الذكاء أو الموضوعية، على مجريات الزمن، المنظور، والوقائع اليومية الثقيلة البارزة للعيان؟!

كتب للمؤلف

أ – أبحاث تاريخية

ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز:
الطبعة الخامسة، مؤسسة الرسالة – بيروت

عماد الدين زنكي:
الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة – بيروت

خطوات في الهجرة والحركة:
الدار العلمية، بيروت – ١٩٧٢
الطبعة الثانية، مكتبة القدس، بغداد – ٢٩٧٦

دراسة في السيرة:
الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة – دار النفائس، بيروت

نور الدين محمود: الرجل والتجربة
دار القلم، دمشق – ١٩٨٠

ب - أبحاث إسلامية

لعبة اليمين واليسار :

الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة - بيروت

تهافت العلمانية :

الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

التفسير الإسلامي للتاريخ :

دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٥

الطبعة الثانية ، بيروت - ١٩٧٨

مع القرآن في عالمه الرحيب :

الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين - بيروت .

مقال في العدل الاجتماعي :

الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

الحصار القاسي (وثائق من تاريخنا المعاصر) :

مؤسسة الرسالة ، بيروت - ١٩٧٨

ج - أعمال أدبية

المأسورون (مسرحية) :

دار الارشاد ، بيروت - ١٩٧٠

مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر (نقد):
الدار العلمية، بيروت - ١٩٧١

في النقد الإسلامي المعاصر (نقد):
الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت

الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (نقد):
مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٧٧

فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (نقد):
مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٧٧

معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)
مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٧٨

فهرست